

تاريخ المصريين

١٠٣

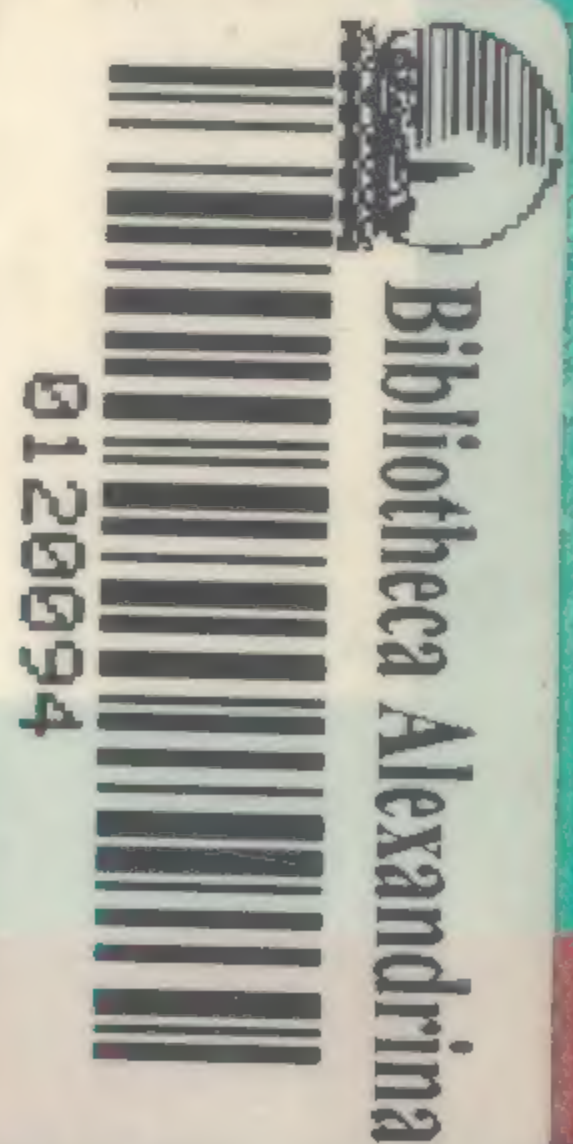
الأهرام

رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره

د. على بركات



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



تاريخ المصريين

(١٠٣)

تاريخ المصريين

رئيس مجلس الإدارة
د. سمير سرخان
رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

تصدر عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب



رؤية الجببرتي لبعض قضايا عصره

د. علي بركات



الهيئة المصرية العامة للكتاب

فرع الصحافة

١٩٩٧

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب عن المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي ، الذي كتبه الأستاذ الدكتور علي بركات ، أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب ، بجامعة حلوان .

وقد سبق لهذه السلسلة في العدد (٨) ، أن قدمت للدكتور علي بركات كتاب : « رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية في مصره » ، ونفدت طبعته في فترة وجيزة ، والحث على الدكتور علي بركات في إعادة طبعه ، ولكنه كان يطلب مني الامهال حتى يعيد قراءته ، ويرى ما اذا كان يستحق اضافة يضيفها او تصحيحا أو تعديلا .

وأخيرا استقر رأيي على أن الكتاب في حاجة الى تعديلات واضافات ، فمن ناحية جرى التركيز على الجزء الخاص بالمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية ، التي كان من الضروري أن تنعكس آثارها على الحياة الفكرية والثقافية ، ومن ناحية أخرى جرى التركيز على نقد الجبرتي للحياة الفكرية والثقافية في عصره ، لاستكشاف صحة رأي الدكتور لويس عوض الذي صنف الجبرتي ضمن واضعي الفكر المصري الحديث ، وقد خرج الدكتور علي بركات برأي مخالف أخذ يدلل عليه بأن الجبرتي كان سلفيا في فكره .

ومن أجل هذا فقد تضمن هذا الكتاب ثلاثة فصول : الفصل الأول عن المؤرخ والعصر ، ويتحدث عن الواقع السياسى والاجتماعى فى عصر الجبرتى . والفصل الثانى عن ثقافة المجتمع المصرى فى عصر الجبرتى ، ويفند فيه الدكتور على بركات الراى القائل بمسئولية العصر العثمانى وحده عن التدهور الذى أصاب الحياة الفكرية والدينية ، ويحدد الأسباب الحقيقية برؤية شاملة . أما الفصل الثالث فهو عن الجبرتى والفكر السلفى ، ويتضمن رؤية الدكتور على بركات لموقف الجبرتى من الفكر السلفى ، التى انتهت منها الى أن الجبرتى كان سلفيا فى فكره .

والكتاب على هذا النحو يعد اضافة تاريخية وفكرية تتيح له أن يحتل مكانا مرموقا فى سلسلة تاريخ المصريين خاصة ، والمكتبة العربية عامة .

والله الموفق ،،،

رئيس التحرير

أ . د . عبد العظيم رمضان

مقدمة

منذ بضع سنوات نشرت لى هذه السلسلة كتابا تحت عنوان «رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية» وعندما طلب منى الصديق الدكتور عبد العظيم رمضان إعادة طبعه وجدت نفسى أعيد النظر فى بعض جوانبه . فمن ناحية جرى التركيز على الجزء الخاص بالبناء الاقتصادى والاجتماعى الذى شهد تغيرات ملحوظة فى زمن الجبرتي كانت لها آثارها الواضحة على البناء الثقافى والفكرى . ومن ناحية أخرى أعدت طرح الجزء الخاص بالحياة الفكرية والثقافية مركزا على نقد الجبرتي لها كجزء من نقده للمجتمع فى عصره .

ولما كان لويس عوض قد صنف الجبرتي ضمن واضعى الفكر المصرى الحديث شأنه فى ذلك شأن الشيخ حسن العطار فقد رأيت مناقشة الموضوع على ضوء موقف الجبرتي من الفكر السلفى وبالتالى اختلاف الهدف من توظيف الجزء الأخير من الدراسة فى هذه الطبعة الخاص بالدعوة السلفية التى دعا بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى نجد من شبه جزيرة العرب ومنه سوف نلاحظ أن الجبرتي كان سلفيا فى فكره .

تلك هى التغيرات التى رأيت أنها ضرورية عند إعادة طرح الموضوع وأرجو أن يجد فيها القارئ مبررا لاعادة نشره .
والله ولى التوفيق . .

د . على بركات

الفصل الأول

المؤرخ والعصر

(الواقع السياسي والاجتماعي في عصر الجبرتي)

المؤرخ والعصر

(الواقع السياسى والاجتماعى فى عصر الجبرتى)

ولد عبد الرحمن الجبرتى فى عام ١١٦٧ هـ (١٧٥٤ م) ،
ومات فى عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ / ١٨٢٥ م) . على وجه
التقريب (١) .

وعلى ذلك فالجبرتى عاش النصف الثانى من القرن الثامن
عشر ، والرابع الأول من القرن التاسع عشر . وهى الفترة التى
شهدت انحلال النظام العثمانى المملوكى ومحاولات المماليك التمرد
على السلطة العثمانية ، وكانت بداية الاضطراب اخفاق المحاولة
التي قام بها على بك الكبير للقبض على زمام الامور فى مصر
(١٧٦٧ - ١٧٧٢ م) . ومن ثم انفتح الطريق للصراع بين
العصبيات المملوكية ، من أجل الانفراد بالسلطة ، مستغلة اختلال
أمر الجند العثمانيين ، وبذلك فقد النظام أساس توازنه ، وشهدت
مصر منذ انتهاء حكم على بك الكبير ، حتى مجيء الحملة الفرنسية،
فترة من أكثر فترات تاريخها اضطرابا (٢) .

وخلال هذا الجو المضطرب . كانت هناك فئة اجتماعية ،
استطاعت أن تحافظ على كيانها وتقاليدها ، سواء فى العلم ،
أو فى السلوك الاجتماعى ، وتتمتع بقدر من الاستقرار النسبى ،

تلك هي فئة العلماء ، التي كانت تتمتع بمكانة خاصة في المجتمع المصري ، ومن هذه الفئة الاجتماعية ينحدر عبد الرحمن الجبرتي ، فقد كان والده عالما من علماء الأزهر القلائل ، المهتمين بجوانب من العلوم الطبيعية أو التطبيقية ، الى جانب العلوم الدينية ، وقد أخذ عنه الجبرتي الاهتمام بمثل هذه العلوم ، فهو لم يقنع بدراسة العلوم الدينية فحسب ، بل أضاف اليها طائفة من العلوم الطبيعية، مثل الفلك والطب والحساب(٣) . وتلمذ على الكثيرين من علماء عصره ، مستفيدا من البيئة العلمية التي تربى فيها ، وقد صور الجبرتي البيئة التي نشأ فيها من خلال ترجمته لحياة والده الشيخ حسن الجبرتي . فقال : « ان والده كان اذا أتاه طالب ، فرح به ، وأقبل عليه ، ورغبه وكرمه اذا كان غريبا ، وربما دعاه للمجاورة عنده ، وصار من جملة عياله ، ومنهم من أقام عشرين عاما قايما ونياما ، لا يتكلف شيئا من أمر معاشه ، حتى غسيل ثيابه ، من غير تعب ولا ضجر ، وأنجب عليه كثير من علماء وقته المحققين طبقة بعد طبقة »(٤) .

الى جانب هذا ، فان الجبرتي قد استفاد من وضع والده الاجتماعي ، وعلاقاته الواسعة بأصحاب السلطة ، من الأمراء والماليك ، والأجناد وكبار العلماء ، في التعرف على معظم شخصيات عصره ، وعلى الاتجاهات الفكرية السائدة في تلك الفترة ، مما جعله أكثر تفهما لما يدور حوله(٥) .

ثم تلمذ الجبرتي مع طائفة من العلماء على الشيخ مرتضى الزبيدي (نسبة الى زبيد) ، الذي قدم من اليمن خلال تلك الفترة، بعد أن زار أقطارا عديدة ، من بينها الحجاز ، وكان الزبيدي من أبرز علماء العصر(٦) . واليه يرجع الفضل في اهتمام الجبرتي بكتابة التاريخ .

ذلك أن الشيخ محمد خليل المرادى ، مفتى دمشق ، كان فى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى ، يقوم بعمل ترجمة لأعلام ذلك القرن ، وطلب فى عام ١٢٠٠ هـ (١٧٨٥ م) من الشيخ الزبيدى أن يساعده فى ذلك ، يجمع تراجم المصريين والحجازيين ، وعندما بدأ الزبيدى القيام بهذا العمل ، طلب من تلميذه عبد الرحمن الجبرتى أن يشاركه فى جمع تراجم العلماء المصريين ، خصوصا أن الزبيدى كان حديث العهد بمصر ، وشرع الجبرتى فى القيام بهذا العمل ، وأخذ يدون تراجمه لمشايخ الأزهر وأمرء الأوجاقات والسناجق ومشايخ البلد ، واعتمد فى ذلك على صديقه الشيخ اسماعيل الخشاب ، الذى كان من عدول المحكمة الشرعية ، وكذلك اعتمد على نقوش المقابر ، وروايات المعمرين (٧) .

لكن الزبيدى توفى فى عام ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) ، وبيعت متروكاته بما فى ذلك الكتب و « الدثتات » ، فاشترها الجبرتى ، ومن بينها عشر كراسات ، كان الزبيدى قد أنجزها عن تراجم القرن الثانى عشر الهجرى ، وسماها المعجم المختصر ، غير أنه فى أعقاب وفاة الزبيدى ، وصل الى الجبرتى خطاب من المرادى ، بطلب فيه ما جمعه الجبرتى من تراجم ، وما حصل عليه من الزبيدى فى هذا الموضوع ، فأدرك الجبرتى من هذه الرسالة أن كتابة التراجم كانت بقاء على رغبة المرادى (٨) . وعندما شرع الجبرتى فى العمل على ضوء هذه الحقيقة ، كان المرادى بدوره قد توفى فى عام ١٢٠٦ هـ (١٧٩١ م) ، مما أدى الى فتور عمدة الجبرتى فى كتابة التراجم ، حتى عاد من جديد الى كتابة التاريخ فى شكل أكثر شمولا ، حيث أضاف الى كتابة التراجم المذكرات اليومية ، ابتداء من عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) ، عند نزول قوات الحملة الفرنسية الى مصر ، والتي راح يدون أحداثها فى شكل يوميات .

ومع رحيل الحملة الفرنسية عن مصر عام ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) ، كان الجبرتي قد قام بعملين رئيسيين فى كتابة تاريخ تلك الفترة : **أولهما** تراجم متناثرة لأعيان القرن الثانى عشر الهجرى . **والآخر** كان تاريخا متكاملا فى شكل مذكرات لأحداث مصر فى ظل الاحتلال الفرنسى ، ومالبت الجبرتي أن قام بعملية ربط بين العاملين ، مع مواصلة مذكراته ، لتشمل الفترة حتى عام ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ م) ، ومعنى هذا أن الجبرتي جمع من مصادر متعددة ما استطاع جمعه من وقائع القرن الثانى عشر الهجرى ، حتى عام ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) ، وأخرج من هذا كله الجزعين الأول والثانى من كتابه « عجائب الآثار » ، ثم عدل فى « مظهر القديس » (٩) ، وأخرج منه الجزء الثالث من عجائب الآثار ، بعد إضافة حوادث الفترة ما بين عام ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) ، وعام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) ، ثم أخذ يدون مذكراته للجزء الرابع ، الذى يشمل تاريخ مصر من عام ١٢٢٢ هـ ، الى ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ م) (١٠) . وعلى ذلك فقد عاش الجبرتي فترة الأحداث المتلاحقة التى شهدتها مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر حيث كانت الدولة العثمانية قد دخلت فى مرحلة من الضعف ، ابتداء من القرن السابع عشر ، فالسلاطين العثمانيون الذين شهدتهم تلك الفترة ، كانوا سلسلة من الحكام الضعاف ، يفتقدون القدرة والمهارة اللازمة على ادارة الدولة ، وقد تمتع ذلك الطريق للصراع على السلطة ، بين كبار الموظفين ، وقواد الجيش والقصر ، ومالبت أن انتقل محور السلطة الى صدور العظام ، بتولى أسرة كوبرولو لوظيفة الصدر الأعظم فى أواخر القرن السابع عشر ، وفى نفس الوقت كانت الادارة المركزية تعاني من الفساد والتدهور ، وخاصة الادارة المالية (١١)

أما نظام الانكشارية ، الذى كان يمثل العمود الفقرى للنظام العسكرى فى الدولة العثمانية ، فقد أخذ بدوره يتدهور ، ويتسرب

الية الخل ، وتفقد الانكشارية روحها العسكرية وانضباطها ، بعد أن سمح لأفرادها بالزواج ابتداء من عام ١٥٦٦ ، كما سمح لأبنائهم بالالتحاق بالجيش ، ومن ثم أصبحت هناك طبقة عسكرية وراثية أخذت — شيئاً فشيئاً — تحتكر لنفسها المناصب العليا فى الدولة ، وفى نفس الوقت ، فإن الدولة العثمانية لم تحاول أن تواكب التطورات المادية والفكرية التى حدثت فى أوروبا ، أو تحاول اكتشاف الأسباب التى استطاعت أوروبا بها أن تحقق نهضتها ، كما ظلت النظم العثمانية جامدة ، لم تتغير منذ عهد سسليمان القانونى (١٢) .

وخلال تلك الفترة كانت سلطة الحكومة المركزية على ولاياتها قد أخذت تضعف شيئاً فشيئاً ، مما ترك للقوى المحلية فرصة أوسع للعمل ، فال فراغ الذى نجم عن تقلص سلطة الدولة فى الأقاليم ، ملأه الأعيان والزعماء المحليون ، وأصحاب العصبية ، وقبائل البدو ، وفى مواجهة تدهور السلطة فى الأقاليم كان السلطان العثمانى يحاول دون جدوى أن يظل هؤلاء الأعيان أو أصحاب العصبية على ولائهم للدولة ، فمرة يعينهم فى الوظائف الرسمية ، وطوراً يقدم لهم الرشاوى ، ومرة ثالثة يرسل ضدهم الحملات العسكرية ، ولم يكن السلطان ومن حوله يملكون علاجاً ناجعاً لهذه الأوضاع (١٣) .

وكان ضعف الدولة العثمانية وتخلفها ، أكثر وضوحاً فى الولايات العربية ، التى أصبحت مسرحاً للقلاقل والاضطرابات ، بعد أن أصيبت النظم العثمانية فى الشرق العربى فى القرن الثامن عشر بالانهيار ، نتيجة لاختلال التوازن بين السلطة المركزية — ممثلة فى الباشا — من ناحية ، والحاميات العثمانية والعصبية المحلية من ناحية أخرى ، وزاد من هذا الخلل تمرد

القبائل العربية في صحراء سوريا وفي مصر ، وكذلك تمرد قبائل الأكراد في شمال العراق .

وكان الباب العالي يعتريه الخوف من جراء هذه الاضطرابات فكان يتردد بين انتهاج سياسته التقليدية ، في تغيير الباشوات العثمانيين بانتظام ، وتثبيت هؤلاء الباشوات ، خصوصا أولئك الذين أثبتوا قدرة في اخضاع حركات التمرد ، وقد أدى تثبيت هؤلاء الباشوات الى تكوين أسر حاكمة في بعض الولايات العربية ، مثل المماليك في العراق ، وآل العظم في سوريا ، كما أدى ضعف السلطة المركزية في الدولة العثمانية الى قيام حركات ذات طابع انفصالي ، مثل حركة الشيخ ظاهر العمر في فلسطين ، وحركة علي بك الكبير في مصر (١٤) .

وخلال هذه الفترة ، أصبح ضعف الدولة العثمانية أكثر وضوحا في جبهات القتال ، وخاصة جبهة الصراع مع النمسا وروسيا ، فالهجوم العثماني الذي استهدف الاستيلاء على فيينا عام ١٦٨٣ م (١٠٦٤ هـ) . فشل في تحقيق أهدافه ، وما لبث أن تحول الى تقهقر ، أعقبته هزيمة ساحقة للقوات العثمانية ، أمام قوات الأمير يوجين في معركة زنتا عام ١٦٨٧ ، وأرغم العثمانيون — نتيجة لذلك — على قبول معاهدة كارلوفتز في يناير ١٦٩٩ م (١١١١ هـ) ، التي تنازل العثمانيون بمقتضاها عن ترانسلفانيا ومعظم أراضي المجر ، وأجزاء كبيرة من سلوفاكيا وكرواتيا للنمسا ، كما أعيدت سيادة بولندا كاملة على بادوليا وأوكرانيا (١٥) .

أما روسيا ، التي دخلت الحرب — خلال تلك الفترة — الى جانب النمسا ، فقد استطاعت الاستيلاء على ميناء أزوف في القرم ، وبعض الأراضي عبر نهر الدنيستر ، واعترف العثمانيون بذلك في

معاهدة وقعت في استانبول في يوليو ١٧٠٠ . وبمقتضى هاتين الاتفاقيتين وضعت روسيا والنمسا أسس تدخلها في الدولة العثمانية ، كما وضعت أراض إسلامية — لأول مرة — تحت سيادة دولة مسيحية (١٦) .

وعلى الرغم من أن العثمانيين أحرزوا بعض الانتصارات ضد روسيا والنمسا ، في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، بفضل أسيرة كوبرولو ، فإن ضعف الدولة العثمانية أصبح حقيقة واقعة في الفترة التالية ، ففي الحرب التي نشبت بين الدولة العثمانية وروسيا ، بسبب المشكلة البولندية (١٧٦٨ — ١٧٧٧) ، أحرز الروس انتصارات برية وبحرية على الدولة العثمانية ، وتمكن الأسطول الروسي من الوصول إلى البحر المتوسط ، بعد أن تحرك من قواعده في البلطيق ، وقد أحدث ظهور هذا الأسطول دويًا كبيرًا في المنطقة ، واتصلت به العناصر السلافية والأرثوذكسية ، التي ثارت على الدولة العثمانية في البلقان خلال تلك الفترة ، بتحريض من روسيا (١٧) كذلك اتصلت به العناصر الثائرة في الولايات العربية ، مثل علي بك الكبير ، والشيخ ظاهر العمر .

وفي معاهدة كيتشك قينارجي — التي أنهت هذه الحرب — فقدت الدولة العثمانية انفرادها بالسيطرة على البحر الأسود ، بعد أن أصبح لروسيا حق إقامة عدد من القواعد البرية والبحرية على شواطئه ، وأعطيت روسيا حق إقامة كنيسة أرثوذكسية في استانبول ، وبذلك أصبح في إمكان روسيا التدخل في شئون الدولة العثمانية ، بدعوى حماية المسيحيين الأرثوذكس ، كما مهدت هذه الاتفاقية لاستيلاء الروس على أراضي خانات القرم المسلمين (١٨) .

هكذا تضافرت عوامل الضعف الداخلى ، وعوامل الضغط والتؤديد الخارجى ، لتجعل الجدار الذى ظل حائلا دون اطماع الغرب لعدة قرون ، غير قادر على الصمود ، بعد أن أصبح مليئا بالثغرات ، التى مالبث أن نفذ منها الاستعمار الأوربى ، الى المنطقة العربية فى صور متعددة (١٩) .

وفى مصر ، تمثل ضغط الرأسمالية العالمية ، فى محاولة احياء طريق السويس البرى ، حيث شهد النصف الثانى من القرن الثامن عشر اهتماما انجليزيا وفرنسيا ، شاركت فيه النمسا أيضا ، فى محاولة لحياء طرق التجارة الدولية عبر البحر الأحمر ، ويرجع ذلك الى ثلاثة عوامل :

— ضعف الدولة العثمانية ، الذى أصبح واضحا خلال حركة على بك الكبير ، والحرب الروسية العثمانية التى عاصرتها .

— بروز أهمية مصر ، كحلقة فى الطريق الى الشرق ، وهو الوضع الذى اتضح خلال حرب السنوات السبع بين انجلترا وفرنسا (١٧٥٧ — ١٧٦٣) ، كطريق أقرب الى الهند ، لنقل البريد والمسافرين .

— رغبة التجار البريطانيين الأحرار ، فى وجود طريق مباشر للتجارة بين الهند وميناء السويس ، وكانت المراسلات بين هؤلاء التجار وعلى بك الكبير قد بدأت ، من اجل عقد معاهدة تجارية لتحقيق ذلك الهدف ، وقد أسفرت هذه الاتصالات عن عقد المعاهدة المعروفة ، بين حاكم البنغال وارن هستنجز ومحمد بك أبو الذهب ، الذى خلف على بك الكبير فى مصر ، وقد وقعت هذه الاتفاقية فى مارس ١٧٧٥ ، وبمقتضاها أصبح فى امكان

التجار الانجليز الحصول على المنتجات المصرية دون تحصيل ضرائب عليها ، وفى هذه المعاهدة تعهد محمد بك أبو الذهب بالمحافظة على التجارة عند نقلها من الطور أو السويس الى القاهرة (٢٠) ، وقد عارضت السلطات العثمانية هذه المعاهدة ، وطلبت من السلطات البريطانية منع السفن الانجليزية من الوصول الى السويس ، وقد استجابت الحكومة البريطانية على المستوى الرسمى لهذا الطلب ، ولكن السفن الانجليزية استمرت فى التردد على ميناء السويس ، مما جعل السلطان العثمانى يصدر فى عام ١٧٧٩ فرمانا ، يقضى بمنع السفن الانجليزية من الاقتراب من السويس (٢١) ، ومالبت الدولة العثمانية أن أرسلت حملة القبطان حسن باشا عام ١٧٨٦ ، لوضع حد لسيطرة المماليك فى مصر .

وهناك ثلاثة عوامل كانت وراء معارضة الباب العالى لتلك المحاولات :

١ — معارضة المجتمع التجارى العثمانى فى جدة ، الذى كان يرى فى وصول التجارة الى ميناء السويس ، عاملا فى تدهور ميناء جدة ، لحساب ميناء السويس .

٢ — أن تدفق التجارة الشرقية عبر مصر ، سوف يزيد من قوة المماليك المتطلعين الى السلطة ، والمناوئين للحكم العثمانى .

٣ — أن عقد مثل هذه المعاهدات يعد اعترافا ضميا بسلطة المماليك فى مصر ، وافتئاتا على سلطة الباب العالى ، صاحب الحق فى السيادة على مصر (٢٢) .

وبسبب هذه المعارضة فشلت هذه المعاهدة ، وغيرها من المعاهدات ، التى حاولت انجلترا وفرنسا توقيعها مع سلطات

المماليك ، وبسبب حالة الفوضى التى عمت البلاد عقب فشل حركة على بك الكبير ، وموت خليفته محمد بك أبو الذهب ، وبسبب انشغال بريطانيا بالصراع ضد فرنسا فى الميدان الأوروبى ، الذى كان من نتائجه ارسال الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١) (٢٣) .

وقد لقيت الحملة الفرنسية مقاومة عنيفة من جماهير المصريين فى الريف والمدينة ، وبسبب هذه المقاومة المستمرة ، تأكلت قوة الاحتلال الفرنسى ، حتى أرغمت فى النهاية على الجلاء عن مصر ، خلال جهد عثمانى انجليزى مشترك (٢٤) .

وقد أعقب خروج الفرنسيين من مصر ، صراع عنيف على مستقبل السلطة فى مصر ، فالعثمانيون يحاولون العودة بالأوضاع الى ما كانت عليه قبل الحملة الفرنسية ، وتشديد قبضتهم على البلاد ، متجاهلين كل المتغيرات ، خلال فترة الاحتلال الفرنسى ، وفى هذه المحاولة كان العثمانيون يعتمدون على قواتهم الموجودة فى مصر ، والتى شاركت فى طرد الفرنسيين ، بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، وعلى أسطولهم المربط فى المياه المصرية ، بقيادة القبطان حسن باشا ، وبلغ مجموع هذه القوة حوالى ٣٠ ألف جندى .

وكان المماليك الذين ضعفت قوتهم خلال معارك الحملة ، يطمحون بدورهم فى العودة بالأوضاع الى ما كانت عليه ، باعتبارهم حكام البلاد المحليين ، وقد اصطدمت هذه الرغبة بأهداف العثمانيين ، الرامية الى التخلص من المماليك ، ومن ثم راح بعضهم يتحالف مع الانجليز ، وعلى رأس هذا الجناح الألفى ، والبعض الآخر مع الفرنسيين بقيادة البرديسى .

أما **الانجليز** الذين شاركوا في طرد الفرنسيين ، بقوة تصبل الى ٢٠ ألف جندي ، بقيادة الجنرال هتشفسون ، هؤلاء أخذوا يتلکأون في الخروج ، تحدوهم الرغبة في استمرار قواتهم بمصر ، حتى تنجلي الأمور ، واستطاعوا بالفعل استمالة جناح من المماليك، للارتكاز عليه في مصر ، وكان البريطانيون يرون أن المماليك وحدهم هم القادرون على الدفاع عن مصر في مواجهة الأطماع الفرنسية ، ومن ثم نشطت الدبلوماسية البريطانية خلال تلك الفترة من أجل الوصول الى اتفاق سلمى بين المماليك والباب العالي ، لكن الأتراك كانوا مصممين على القضاء على المماليك ، ومن ثم رفض العثمانيون كل هذه العروض ، وكان ذلك يحدث حتى بعد أن انسحب البريطانيون من مصر ، بمقتضى صلح أميان (١٨٠٢) ، الذى أنهى مرحلة من الحرب في أوروبا .

وكان **الفرنسيون** الذين أرغموا على الجلاء عن مصر ، يطمعون في العودة اليها . خصوصاً أن الصراع لم يكن قد حسم بعد ، واستطاع الفرنسيون بدورهم استمالة جناح آخر من المماليك ، بقيادة البرديسى (٢٥) .

ثم هناك **الطبقة الوسطى** بقيادة علماء الأزهر ، ومن ورائهم جماهير القاهرة ، من العامة وفقراء المدينة ، وهى الفئات التى لعبت دوراً واضحاً فى ثورات القاهرة ضد الفرنسيين ، وسوف يتعاضد دورها خلال الفترة التالية ، وفى وصول محمد على الى السلطة (٢٦) .

وكان محمد على قد حضر الى مصر ضمن القوة العثمانية ، التى شاركت في طرد الفرنسيين ، تحت قيادة طاهر باشا قائد الفرقة الألبانية ، وقد بدا الصراع الذى انتهى بوصول محمد على الى السلطة ، عندما حاول الوالى خسرو باشا ، الذى عينه

العثمانيون عقب رحيل الفرنسيين ، التخلص من القوة الالبانية ، لكن هؤلاء ثاروا عليه ، وأرغموه على الفرار من القاهرة ، ومن ثم نادى الجند الألبان بقائدهم طاهر باشا واليا على مصر خلفا لخسرو (مايو ١٨٠٣) ، لكن طاهر باشا عجز عن دفع مرتبات هؤلاء الجند ، فثاروا عليه وقتلوه فى نفس الشهر ، وعقب مقتل طاهر باشا ، عين الباب العالى واليا عثمانيا جديدا ، هو على باشا الجزايرلى ، الذى وصل على رأس قوة من الجند قوامها ١٥٠٠ رجل ، احتل بها الاسكندرية ، وفى هذه الظروف كان أصحاب القوة الحقيقية فى مصر هم المماليك ، ومحمد على الذى رأى التحالف مرحليا مع المماليك ، للتخلص من الوالى العثماني ، وبالفعل تمكن هذا التحالف من القضاء على الجزايرلى وقتله ، عندما علموا بعزمه على الحضور الى القاهرة .

غير أن الصراع مالبث أن احتدم بين جناحى المماليك بعد عودة الألفى ، الذى كان قد سافر الى لندن فى عام ١٨٠٣ ، وفى هذا الصراع تمكن البرديسى من الانفراد بالسلطة لبعض الوقت ، واشتط فى جمع الضرائب ، فثار عليه القاهريون فى ٨ مارس ١٨٠٤ ، وقد ساعدت هذه الظروف محمد على على توجيه ضربة للمماليك ، واستطاع التخلص من ٣٥٠ من قياداتهم ، فيما عرف بانقلاب مارس ١٨٠٤ ، وفى هذه الظروف تم تعيين خورشيد باشا حاكم الاسكندرية واليا على مصر ، وكنتيجة لخلو الخزانة من الأموال ، شرع خورشيد فى فرض ضرائب جديدة ، كما استقدم قوات من الدلاة للاستعانة بهم فى مواجهة قوات محمد على ، ودخل هؤلاء القاهرة فى نهاية فبراير ١٨٠٥ ، وعسائوا فى القاهرة وضواحيها فسادا ، وفى ذلك الوقت كان محمد على يقاتل قوات المماليك فى صعيد مصر ، فعاد مسرعا لمواجهة الموقف الجديد ، الناجم عن وصول هذه القوات واستفزازاتها ، وفور وصوله .

شرع محمد على فى التدخل فى الموقف المتفجر ، مستغلا ثورة القاهرة ضد خورشيد ، التى بدأت فى أوائل مايو بسبب الضرائب التى فرضها خورشيد ، ويسبب تسلط الدلاة ، وكان محمد على قد استطاع خلال الفترة السابقة توطيد علاقته بعلماء الأزهر ، والحركة المناهضة لتسلط الولاة ، وكانت هذه الحركة بزعامة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، وفى هذه الظروف اتجهت الأنظار الى محمد على ، بعد أن رأت هذه الحركة فيه الشخص القادر على مواجهة الأوضاع المتردية ، وعندما حاول خورشيد التخلص من محمد على ، بنقله الى جدة ، ثارت جماهير القاهرة ، والتفت حول محمد على ، وحاصرت خورشيد فى القلعة ، التى ظل سجيناً بها حتى صدر فرمان من الباب العالى بعزله ، وتولية محمد على فى ٩ يوليو ١٨٠٥ ، تحت ضغط ثورة جماهير القاهرة وقيادتها ، التى كانت تطمح أن يحكم محمد على من خلال مشورة العلماء (٢٧) .

وبوصول محمد على الى السلطة ، تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ مصر ، لعل أبرزها التغيرات التى حدثت فى البناء الاقتصادى والاجتماعى ، وان كانت هذه التغيرات قد وجدت أصولها فى الفترة السابقة على حكم محمد على .

الواقع الاقتصادى والاجتماعى

مع بداية العصور الحديثة ، دخلت القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى فى صراع ، مع طلائع القوى الأوروبية من البرتغاليين ، الذين وصلوا الى البحار الشرقية حول التجارة العالمية ، وقد أسفرت هذه المرحلة من الصراع ، عن تدهور واضح فى تجارة العبور ، التى كانت تأخذ طريقها عبر البحر الأحمر الى موانئ مصر والشام ، وكانت تجارة البحر الأحمر خلال تلك الفترة تأتى من مصدرين :

المصدر الأول : هو الهند والشرق الأقصى ، حيث تأتى التوابل ، التى زادت أهميتها بالنسبة لأوروبا فى نهاية العصور الوسطى .

المصدر الثانى : هو منتجات البلاد الواقعة على شواطئ البحر الأحمر (٢٨) .

وإذا كانت تجارة التوابل قد تأثرت بشكل واضح من جراء هذه التطورات ، فإن منتجات البلاد الواقعة على جوانب البحر الأحمر ، قد استمرت تشكل جزءا من تجارته .

ومع الوقت أصبحت مصر مركزا لهذه التجارة ، التى أخذت فى الازدهار ، بين عالم البحر الأحمر وبلاد البحر المتوسط ،

مستفيدة من الوحدة السياسية التي حققها العثمانيون في المنطقة ،
وأصبح البن سلعة رئيسية في هذه التجارة في أواخر القرن
السابع عشر .

وعلى ذلك ، فإنه في ظل النظام الاقتصادي العثماني ، أصبح
لمصر وظيفتان : الأولى : هي توريد المواد الغذائية ، وبعض المواد
الخام ، لمناطق واسعة من الدولة العثمانية ، والأخرى : هي أن
مصر أصبحت حلقة مهمة في تجارة العبور ، بين آسيا وجزيرة
العرب وبلاد البحر الأحمر من جهة ، وبلاد البحر المتوسط
وأوروبا من جهة أخرى (٢٩) .

وتدرجاً أصبحت الأموال التي تحصل عليها مصر من تجارة
العبور ، سبباً في قوة الممالك ، وفي تكوين طبقة تجارية خاصة .

وتشير المصادر إلى أن الاستثمار في تجارة البن خلال تلك
الفترة ، كان يعطى ربحاً يصل إلى ٣٣٪ ، كما كانت تجارة العبور
في مجموعها تمثل ٢٥٪ من مجموع تجارة الواردات في مصر ،
و ٤٠٪ من تجارة الصادرات ، وكان ٢٨٪ من تجارة البحر الأحمر
والمحيط الهندي يعاد تصديرها من مصر ، وفي مقدمتها البن
والملابس الهندية ، وتقدر بعض المصادر أن دخل الحكومة في مصر
من هذه التجارة كان يصل إلى ٥٠٪ من مجموع دخلها ، وقد بلغت
تجارة البن ذروتها خلال الفترة ما بين ١٦٩٠ و ١٧٢٥ ، وقد برزت
أسماء بعض كبار التجار خلال تلك الفترة (٣٠) .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، كان النشاط
التجاري في مصر ، تقوم به عناصر من المسيحيين السوريين
والأرمن بوجه خاص ، وقد اتسع دور هذه العناصر في التجارة
الداخلية والخارجية ، وساعد على ذلك عاملان :

العامل الأول :- سوء استعمال الامتيازات التى كانت تخول لقناصل الدول الأجنبية منح براءات للسكان المحليين ، يحصلون بمقتضاها على الجنسية الأوربية ، وبالتالي كان لهم الحق فى المزايا ، التى كانت تمنحها الامتيازات الأجنبية للتجار الأوربيين ، خاصة الخفض النسبى للرسوم المفروضة على وارداتهم وصادراتهم وبذلك أمكنهم أن يعرضوا أسعارا أقل من تلك التى كان يمكن أن يعرضها منافسوه من رعايا الدولة العثمانية ، الأمر الذى مكن التجار الشوام والأرمن من أن يجعلوا السوق فى وضع شبيه احتكارى ، فيما يتعلق بتجارة الجملة داخل الدولة العثمانية فى نهاية القرن الثامن عشر .

أما العامل الآخر : الذى أدى الى تركيز التجارة المصرية فى أيدي السوريين المسيحيين ، فهو الطرد المفاجئ لليهود من المراكز التى كانوا يشغلونها فى الادارة المالية فى مصر وجنوب سوريا فى اوائل الستينات من القرن الثامن عشر ، فى عهد على بك الكبير ، الذى أسند ادارة الجمارك فى مصر الى السورى حنا فخر .

بذلك سيطر السوريون على أحد المراكز الرئيسية ، التى تتحكم فى التجارة ، الأمر الذى أدى الى تزايد أعداد التجار السوريين المسيحيين .

وفى نفس الوقت ، فقد شهد عهد على بك الكبير محاولة لاعادة فتح طريق السويس أمام التجارة الانجليزية — كما سبق أن أشرنا — وكان ذلك بناء على نصيحة التاجر الايطالى (البندقى) كارل روزيتى ، وكان روزيتى يدرس أوضاع التجارة الداخلية فى نفس الوقت ، مستعينا فى ذلك بالنفوذ الذى حصل عليه لدى البكوات المماليك ، وبالفعل نجده قبل نهاية العصر المملوكى قد أخذ يتدخل فى هذه التجارة لمصلحته الخاصة ، حتى استطاع الحصول على حق احتكار استيراد السنامكى (٣١) .

وثمة ظاهرة يمكن رصدها في الحياة الاقتصادية المصرية خلال تلك الفترة (النصف الثاني من القرن الثامن عشر) ، وهي تطور علاقة الريف بالمدينة ، التي يمكن ملاحظتها في صناعة النسيج ، ذلك أنه على الرغم من أن نظام الصناعة في مصر في القرن الثامن عشر ، كان يقوم على الوحدات الانتاجية الصغيرة ، التي تنتج حسب الطلب ، ويزودها العملاء بالمواد الأولية أحيانا ، وعلى الرغم من ذلك أخذت عناصر من الرأسمالية التجارية طريقها الى هذه الصناعات ، عندما أصبح كبار التجار في المدن يقومون بتمويل بعض الصناعات في الريف ، وتشغيل الصناع لحسابهم ، مع تزويدهم بالأدوات والمواد الأولية ، وكان هؤلاء الصناع ينتجون حسب المواصفات التي يضعها التجار (٣٢) .

ويفهم من كتابات المعاصرين ، أن كبار تجار العاصمة كانوا يستوردون القطن من سوريا ، ويوزعونه على النساء في الريف ، لغزله في منازلهن في أوقات الفراغ ، ثم ترسل خيوط الغزل الى النساجين وإلى المصانع ، تحت إشراف هؤلاء التجار ، وكانت السلع تعرض في الأسواق الأسبوعية في القرى ، وفي الأسواق التي كانت تعقد أيا ن الأعياد والموالد ، وفي متاجر المدن ، وفي مراكز صناعة النسيج في الوجه القبلي كان النساجون يرسلون القطن الخام ، الذي يحصلون عليه من سوريا الى النساء في القرى المجاورة للمدن ، خاصة قنا وقوص ، لغزله (٣٣) .

وعلى ذلك ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، كانت علاقة الريف بالمدينة آخذة في النمو ، من خلال العلاقات المتشابكة ، التي أوجدتها صناعة النسيج ، وكذلك من خلال الأسواق التي كانت تعقد في المدن (٣٤) .

وكانت القاهرة أكبر المراكز التجارية فى مصر ، ولها ميناءان نهرىان ، أحدهما فى مصر القديمة ، والآخر فى بولاق ، وفى الدلتا كانت طنطا أهم المراكز التجارية ، وكان يقام بها سوق سنوى ، تجتمع به أعداد كبيرة من التجار والمشتريين من كل أقاليم مصر ، حيث تباع المنسوجات ، وكافة السلع ، كما كانت المحطة الكبرى مركزا لصناعة وبيع المنسوجات ، كما كانت المنصورة وسمنود من المراكز التجارية المهمة .

وكانت الشيلان والمنسوجات الراقية ، تجذ طريقها للتصدير من مينائى رشيد ودمياط ، كما كانت الأقمشة الصوفية والشيلان تصدر الى دارفور وسنار وكردفان بطريق القوافل ، وقد تخصصت بعض بلاد الوجه البحرى فى انتاج أنواع من الأقمشة ، كانت تصدر الى سوريا (٣٥) .

ونعما يتعلق بأسواق المدن فى الصعيد مصر ، تشير المصادر الى أن مدينة اسنا كانت فى نهاية القرن الثامن عشر سوقا رئيسية فى الصعيد الأعلى ، وفى سوقها الأسبوعى كان الفلاحون يبيعون ما يزيد على حاجتهم من القمح والحبوب والخضراوات والدواجن والصوف الخام والقطن المفزول ، ويشتررون مقابل ذلك السلع المصنوعة محليا والأواني والصابون والأرز الوارد من القاهرة .

وفى هذه السوق كانت تباع المنسوجات القطنية والكتانية وبعض الملابس المصنوعة من الجوخ ، كما يجلب البدو الى سوق اسنا الصمغ ، الذى كانوا يجمعونه من أشجار السنط ، وكذلك الفحم المصنوع من خشب هذه الأشجار ، ويقوم تجار اسنا بنقله عن طريق النهر الى القاهرة والمدن الأخرى ، وخلال تلك الفترة أصبحت اسنا مستودعا للسلع الواردة بالقوافل من السودان ، والسلع الأوربية الواردة عن طريق القاهرة الى الصعيد ، كما

كانت أسيوط مركزا تجاريا هاما لتسويق السلع الواردة من السودان ، بعد استهلاك بعضها فى الأسواق والمراكز التجارية فى الصعيد الأعلى ، فى مقابل ما كانت ترسله القاهرة الى هذه المناطق ، من السلع والمنسوجات ، وقد عمل النيل كطريق أكثر أمنا فى ربط هذه المراكز بعضها ببعض ، وكذلك تنشيط التجارة الخارجية (٣٦) .

وعلى الرغم من هذا ، فقد بالغ البعض فى القول بوجود تطور رأسمالى فى مصر خلال تلك الفترة (٣٧) ، ذلك أن هذا التطور كانت تحد منه عدة عوامل :

أولا : اختلال نظام النقد :

وعدم ثبات قيمة العملة ، فلا يكاد يمر عام دون حدوث تغيير فى قيمة العملة ، أو إلغاء عملة ، وسك عملة جديدة ، الى جانب استخدام العديد من العملات الأوربية فى السوق المصرية ، وهذه كانت تختلف من حيث القيمة والوزن ، فالى جانب النقود العثمانية المتداولة ، عرفت مصر عددا من العملات الذهبية والفضية ، مثل البندقي نسبة الى البندقية ، وهو عملة ذهبية ، والريالات الفضية الهولندية والأسبانية والنمساوية ، التى أطلق عليها العامة تسميات محلية ، فالريال الأسباني كان يطلق عليه أبو مدفع ، والريال النمساوى أبو طيرة ، نسبة الى النسر النمساوى شعار الهابسبورج المنقوش عليه ، كما كان يطلق عليه فى بعض الأحيان أبو طاقية ، وكذلك كان يطلق على الريال الهولندى أبو كلب ، نظرا لصورة الأسد المرسومة على أحد وجهيه (٣٨) .

ويبدو أن النقد الأجنبى كان موضع احترام المصريين فى ذلك الوقت ، يفهم ذلك من تعليق الجبرتي على أحداث عام ١٢٢٠ هـ

(١٨٠٦ م) ، حيث يقول : « عز وجو دالفرانسة لرغبة الناس فيه ولسلامته من الغش والنقص ، لأن جميع معاملة الكفار سليمة من الغش والنقص بخلاف معاملة المسلمين ، فان الغالب على جميعها الزيف والخلط والغش والنقص » (٣٩) .

ثانيا : التهديد المستمر للطرق والأسواق :

الذى كان يأتى من أكثر من مصدر ، فالمماليك والبدو وقطاع الطرق المحترقون ، كل هذه العناصر كانت تعوق حركة التبادل بين الريف والمدينة ، لدرجة ان القاهرة التى كانت تحصل على غذائها من فائض القمح فى الوجه القبلى ، تصبح مهددة بالمجاعة فى بعض الأوقات ، وهى ظاهرة تعرض لها الجبرتى فى أكثر من موضع (٤٠) ، كما أوضح الجبرتى أن التهديد المستمر للأسواق ، كان السبب فى ارتفاع اسعار بعض السلع فى المدن الكبرى ، فهو يذكر أن تهديد سوق امبابة ، كان سببا فى ارتفاع الاسعار فى مدينة القاهرة عام ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) ، لأن الفلاحين امتنعوا عن التردد على سوق امبابة ، وكانوا يحاولون تهريب منتجاتهم الى المدينة خفية (٤١) .

وظاهرة تهديد الطرق ، يبدو أنها كانت مستمرة منذ فترة ، فالرحالة الانجليزى فانسلب ، الذى زار مصر فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، أشار الى التهديد الذى كانت تعاني منه الطرق من اللصوص المحترفين ، وعناصر البدو ، ومن عناصر السلطة المملوكية من الكشاف الذين كانوا يعيشون على الابتزاز والاعتصاب وقطع الطريق فى بعض الأحيان ، ويقول انه من أجل زيارة الفيوم ، اضطر الى الإنتظار الى شهر يوليو ، حيث يقوم التجار ومنتجو العنب بنقله الى جماعات لتسويقه بالقاهرة ، وحيث يتراجع عناصر البدو الى الصحراء (٤٢) .

ثالثا : القلق السياسى الذى عاشته المدينة :

الذى أصبح طابع الحياة اليومية فى القاهرة ، وغيرها من المدن الكبرى ، وهى حقيقة أشار اليها الجبرتى فى أكثر من موضع ، فهو يعلق على حوادث عام ١١٩٨ هـ (١٧٨٣ / ١٧٨٤ م) ، بقوله : « وانقضت تلك السنة كالتى قبلها ، فى الشدة والفلاء وقصور النيل والفتن المستمرة ، وتواتر المصادرات ، والمظالم من الأمراء ، وتوالى طلب السلف من تجار البن والبهار ، ومن المكوسسات المستقبلية ، ولما تحقق التجار عدم الرد استعاضوا خسارتهم من زيادة الأسعار ، هذا والفلاء مستمر ، والأسعار فى الشدة ، وعز الدرهم والدينار من أيدى الناس » (٤٣) .

ولم تكن المدن الاقليمية بعيدة عن مثل القلاقل والتعديات ، فالجبرتى يذكر ضمن أحداث عام ١٢٠٠ هـ (١٧٨٥ / ١٧٨٦ م) « اجتمع الناس بطندنا (طنطا) لعمل مولد سيدى أحمد البدوى المعتاد ، وحضر كاشف الغربية والمنوفية على جارى العادة ، وكاشف الغربية من طرف ابراهيم بك ، فحصل منه عسف ، وجعل على كل جمل يباع فى سوق المولد ريال فرانسة » ، ويقول الجبرتى : « ان أعوان كاشف الغربية قد اغاروا على بعض الأشراف ، الذين يحضرون المولد ، الأمر الذى تطور الى اشتباك بين العامة وجنود الكاشف وأعوانه ، وهاجت الناس ، ووقع النهب فى الخيام وفى البلد ، ونهبت عدة دكاكين » (٤٤) .

رابعا : تدهور تجارة البن :

التي كانت تمثل نسبة كبيرة من تجارة العبور ، بسبب منافسة البن الذى أصبح ينتج فى جزر الكاريبي ، وهى المنافسة التى أصبحت واضحة ابتداء من عام ١٧٣٠ ، وقد أدت هذه

المنافسة الى انخفاض مبيعات البن اليمنى ، كما انخفضت أرباحه ، الأمر الذى جعل تجار البن ينكرون نى ارتياد مجالات أخرى ، لاستثمار أموالهم ، تكون أكثر أدرارا للربح ، ومنها حيازة الالتزامات فى الأرض الزراعية .

والحقيقة أن المنافسة خلال تلك الفترة لم تكن مقصورة على تجارة البن وحده ، بل امتدت الى سلع أخرى أثرت على حجم تجارة مصر الخارجية (٤٥) .

هذه العوامل أثرت على النمو الاقتصادى فى مصر بشكل عام خلال تلك الفترة ، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا التطور الاقتصادى ساهم فى وجود قدر من الحراك الاجتماعى ، وبالتالي أصبح من الممكن تحديد ملامح طبقة وسطى ، تتكون من التجار وكبار الحرفيين والعلماء ، بينما انضمت عناصر من كبار التجار الى الطبقة العليا أو الصفوة من الأتراك والمماليك ، كما شهد الريف قدرا من التمايز الاجتماعى ، بحيث أصبح من الممكن التعرف على طبقة من أعيان القرى ، استفادت بدورها من هذه التطورات .

البناء الطبقي :

فى بداية العصر العثمانى ، كان التقسيم الطبقي فى مصر ، يتفق فى بعض جوانبه مع التقسيم العرئى للسكان ، فالطبقة العليا فى المجتمع كانت تتكون بشكل عام من الأتراك والمماليك ، بينما تتكون قاعدة الهرم الاجتماعى فى الريف والمدينة من الحرفيين والزراع وأصحاب المهن من المصريين (أولاد العرب) ، لكن التطورات التى شهدتها الفترة الأخيرة من العصر العثمانى ، أوجدت قدرا من الحراك الاجتماعى ، أصبح معه من الممكن التعرف على ملامح طبقة وسطى ، تتكون من التجار والعلماء وأصحاب

الحرف وأعيان الريف ، وفى قاعدة هذا البناء الطبقي نجد العامة وفقراء المدينة والفلاحين فى الريف ، بينما انضم للصفوة عناصر من كبار التجار (٤٦) ، هذا البناء الطبقي يمكن أن نتعسف على ملامحه على النحو التالى :

الصفوة (الطبقة العليا) :

برز المالك كصفوة حاكمة ، كنتيجة لاختلال التوازن بين مؤسسات الحكم العثمانى ، بعد سلسلة من الصراعات مع منافسيهم من أفراد الأوجاقات ، الذين انغمسوا فى ممارسة النشاط التجارى والحرفى ، الا أن موقف أفراد الأوجاقات قد ساء الى حد ما ، بسبب انخفاض أسعار البن ابتداء من عام ١٧٣٠ ، فى الوقت الذى كانت فيه ثروة المالك مرتبطة بحيازة الأرض ، ممثلة فى الالتزامات ، وتقدر هيلين ريفيلين أنه من بين ٦٠٠٠ ملتزم وهم مجموع الملتزمين فى نهاية القرن الثامن عشر ، كان هناك ٣٠٠ ملتزم من المالك ، يحوزون ثلثى الأراضى الزراعية (٤٧) ، التى زادت قيمتها بسبب ارتفاع أسعار الأرض فى ذلك الوقت .

وقد ساهم فى قوة المالك خلال تلك الفترة ، تحالفهم مع كبار التجار المصريين والأجانب ، ذلك التحالف الذى أصبح مناوئاً للوجود العثمانى نفسه ، وفى نفس الوقت فقد أدى تضائل نفوذ الباشوات العثمانيين الى سيطرة المالك على الادارة ومؤسساتها ، وأبرزها الادارة المالية (الروزنامة) ، بالإضافة الى تغلغل المالك فى الفرق العثمانية نفسها .

وبعيداً عن الدخل الذى كان يحصل عليه المالك من وظائفهم، كان فى إمكانهم الحصول على دخول اضافية ، من الجبايات

والضرائب غير القانونية ، التى كانوا يحصلون عليها من المنتجين والتجار فى الريف والمدينة (٤٨) .

لقد عاش المماليك كما عاش العثمانيون ، طبقة مترفة ومتميزة ، ومنفصلة عن سائر طبقات المجتمع المصرى ، بانفرادها باحتلال المراكز القيادية فى الادارة والجيش ، وفى مكانة افرادها ، وفى لغة التعبير ، واسلوب التفكير ، والظواهر السلوكية (٤٩) .

والحقيقة أن المماليك كصفوة حاكمة ، كانوا مستهدفين من قبل السلطة المركزية العثمانية فى نهاية القرن الثامن عشر ، يتضح ذلك من حملة القبطان حسن باشا ، التى حاولت أن تضع حدا لسلطة المماليك فى مصر ، وبمجيء الحملة الفرنسية (١٧٩٨) سقطت الصفوة الحاكمة من الأتراك والمماليك ، وحلت محلها سلطة حاكمة ، استعانت ببعض العناصر من الوطنيين ، من العلماء والمسلمين وبعض الأقباط ، وبذلك فقدت الصفوة المملوكية نفوذها ، ومصادر دخلها ، كما تكفلت معارك الحملة بالقضاء على جانب من قوتهم العسكرية ، وعلى ذلك فعقب خروج الفرنسيين من مصر ، كانت المصادر الأساسية لقوة المماليك قد تزعزعت ، وأصبحت بعض مصادر هذه القوة فى أيدى بعض العناصر الوطنية من العلماء ، وعناصر الطبقة الوسطى ، الذين أصبحوا يدركون أن مصالحهم تتطلب عدم عودة النظام القديم بعناصره من الأتراك والمماليك ، وباتت هذه العناصر الوطنية أكثر تطلعا لنظام جديد (٥٠) .

وهذا يفسر عجز كل من الأتراك والمماليك عن العودة بالأوضاع الى ما كانت عليه قبل الحملة الفرنسية ، كما يفسر أيضا مساندة جماهير القاهرة لمحمد على فى تطلعه للسلطة ،

مستفيداً من ضعف قوى النظام القديم ، الذى تلقى ضربة زعزعت دعائمه السياسية والاقتصادية والعسكرية(٥١) .

ومن جانبهم ، حاول العثمانيون التخلص من المماليك ، فى كل من القاهرة والاسكندرية فى أكتوبر ١٨٠١ ، عقب خروج الفرنسيين ، لكن هذه المحاولة لم تنجح ، بسبب تدخل الانجليز ووقوفهم الى جانب المماليك ، كما فشلت مشروعات أخرى تقدم بها العثمانيون ، وحتى وصول محمد على للسلطة (يونيو ١٨٠٥) ، لم تكن نتائج الصراع بين العثمانيين والمماليك قد حسمت(٥٢) .

وكان محمد على هو الذى استطاع التخلص من بعض قيادات المماليك ، فيما عرف بانقلابات مارس ١٨٠٤ ، مستغلاً ثورة العامة ضد البرديسى ، بسبب الضرائب التى بالغ فى تحصيلها ، وعقب وصوله الى السلطة ، خاض محمد على سلسلة من المعارك ضد المماليك ، انتهت بالقضاء عليهم بشكل حاسم فى مذبحة القلعة عام ١٨١١(٥٣) ، وبذلك اختفى المماليك من مسرح الحياة السياسية والاجتماعية ، وانفتح الطريق لتكوين صفوة من الأتراك والشراكسة من بعض بقايا المماليك .

الطبقة الوسطى من التجار والصناع :

تسبب النشاط الاقتصادى المشار اليه فى وجود طبقة وسطى من التجار والصناع ، وفى اطار هذه الطبقة يمكن أن نميز بين شريحتين ، شريحة عليا من كبار التجار والصناع ، وهذه كانت أكثر اتساعاً من تجار البن والتوابل ، وحسب تقديرات أندريه ريمون — الباحث الفرنسى — كانت ثروة كبار التجار تتراوح ما بين ٥٠ و ٢٠٠ ألف بارة وقد تزيد ، وكان الصناع يشكلون نسبة بسيطة داخل هذه الشريحة ، وكانت العناصر الأكثر غنى من

الصناع هم صناع وتجار السكر وصناع النسيج ، وخاصة
الحرايرية منهم ، وفيما يتعلق بكبار التجار ، كان نشاطهم فى اطار
التجارة الدولية ، وقد أدى تدهور تجارة البن بعد عام ١٧٣٠ ،
الى زيادة عدد تجار المنسوجات بالنسبة لتجار البن والتوابل داخل
هذه الشريحة ، وقد لوحظ خلال الفترة ما بين عامى ١٧٧٦
و ١٧٩٨ زيادة عدد التجار الأجانب ، بالقياس الى التجار المحليين
بين كبار التجار ، وكانت هذه الزيادة تتصاعد فى الشرائح الأغنى
من هؤلاء التجار ، حتى زادت على الضعف بين التجار ، الذين
كانت ثروتهم تزيد على ٢٠٠ ألف بارة ، حسب تقديرات أندريه
ريمون (٥٤) .

وقد ترجم الجبرتى لعدد من هؤلاء التجار ، الذين كانوا يملكون
ثروات هائلة ، زادت فى بعض الأحيان على ١٥ مليون بارة ، من
أمثال محمود محرم الذى كانت له علاقات تجارية مع الحجاز وبلاد
الشام وبلاد الروم ، ومن أمثال عائلة الشرايبي التى ترجم الجبرتى
لعدد من أفرادها ، ومن أمثال احمد العريشى وأخيه من أبيه أحمد
ابن عبد السلام ، وهى عائلة ترجع الى اصول مغربية ، وكذلك
أحمد المحروقى (٥٥) .

وفضلا عن رأس المال العينى ذى الأهمية المتغيرة ، كان
جزء من ثروة هؤلاء التجار يستثمر فى عقارات ثابتة فى المدن ، أو
فى ورش صناعية ، ووكائل وخانات وحمامات ، كما امتلك بعضهم
سفنًا للنقل فى البحر الأحمر ، بالإضافة الى حيازة بعضهم لمساحات
من الأراضى الزراعية فى شكل التزامات ، ويفهم ذلك من ترجمة
الجبرتى لـ أحمد دادة الشرايبي ، فعند وفاته قدرت ثروته المنقولة
والسائلة بحوالى ١٤٨٠ كيسة (٧٤٠.٠٠٠ بارة) ، بخلاف خان
فى الحمزاوى ، وبخلاف الرهن الذى تحت يده من القرى ، ويبلغ

الفائض المتحصل فيها ستين كيسا ، والبلاد التى التزم بها والتى تصل الى ٤٠ كيسا ، بخلاف الوكائل والحمامات وثلاثة مراكب فى بحر القلزم (٥٦) .

وعلى هذا فهناك ما يؤكد أن كبار التجار قد قاموا بتنويع أنشطتهم الاقتصادية ، كما ارتبط بعضهم بالفئات الحاكمة ، عن طريق الزواج ، أو عن طريق المعاملات المالية ، حيث كانت السيولة النقدية عند المالك غالبا ما تحل عن طريق القروض من كبار التجار ، الذين كانت معاملاتهم التجارية الواسعة تحقق لهم قدرا من السيولة النقدية ، وبسبب ذلك انتقلت بعض الالتزامات فى الأراضى الزراعية الى هؤلاء التجار .

وعلى ذلك مثل كبار التجار جزءا من الصفوة الحاكمة ، بعد أن دخلوا فى علاقات مصاهرة مع المالك ، وكانوا بعيدا عن المصادرات التى تعرض لها صغار التجار ، كما كانوا وراء مشروعات على بك الكبير ، الرامية الى توسيع نطاق تجارة البحر الأحمر ، وحملته على الحجاز (٥٧) .

وعلى هذا يمكن التمييز بين هذه الفئة ، والشرائح الأقل من التجار والصناع ، الذين كانت ثرواتهم تتراوح بين ٥٠٠٠ بارة و ٥٠٠٠٠ بارة ، وهم الذين يعتبرهم البعض أكثر تمثيلا لهذه الطبقة ، فقد كانت تتميز عن الشرائح العليا والدنيا من هذه الطبقة بميزتين : الأولى : التفوق الكبير فى عدد التجار على عدد الصناع ، والثانية : الدور المتواضع الذى كانت تلعبه التجارة الدولية ، وخاصة تجارة البن والتوابل فى دخل هذه الطبقة ، وقد تنوعت الأنشطة الاقتصادية لهذه الفئة ، فمن بين الصناع سنجد المهن الأكثر شراء ، مثل صناع السكر والطحانيين وعاصرى الزيوت ، كما يتفوق بداخلها صناع النسيج من حيث العدد ، على

صناع المواد الغذائية ، خلال الفترة ما بين عامى ١٧٧٦ و ١٧٩٨ ، وخاصة نساجى الحرير والخياطين ، ما صناع الجلود وصناع المعادن فان نسبتهم اقل ، وعلى العكس من ذلك نجد صناع المعادن النفيسة والصاغة ترد اعداد كبيرة منهم فى وثائق القرن الثامن عشر .

وفيما يتعلق بالتجار ، نجد أن تجارة المنسوجات تتفوق على غيرها من أنواع التجارة ، وتأتى تجارة المواد الغذائية فى المرتبة التالية ، والسمة الأخيرة المميزة لهذه الفئة الاجتماعية ، هى الأهمية النسبية لأنشطة الخدمات ، وكانت شياخة الطوائف تتركز فى هذه الشريحة من التجار والصناع المتوسطين (٥٨) . ويوجد ضمن هذه الطبقة تجار التوابل وتجار البن وتجار النسيج وتجار الأسواق الكبرى بالقاهرة ، وكان هؤلاء التجار وأصحاب الحرف الأكثر ازدهارا مثل الحرايرية الذين أطلق عليهم الجبرتى أصحاب الحرف المعتبرة فى أحداث عام ١٨٠٢ (٥٩) . كانوا يشكلون فئة اجتماعية متماسكة ، كما كانت مصالحها متقاربة لدرجة يمكن معها التعرف على سلوكها السياسى فى وقت الأزمات الكبرى ، التى شهدتها القاهرة فى عام ١٧٨٦ ، وأبان الاحتلال الفرنسى ، وفى أحداث عام ١٨٠٥ (٦٠) .

وكانت الشريحة المقابلة من الصناع ، هم أصحاب الحرف ، وكان عددهم فى القاهرة يصل الى خمسة آلاف من مجموع العمال ، الذين قدر عددهم بخمسة وعشرين ألفا مع نهاية القرن الثامن عشر ، والذين شكوا الشريحة الدنيا أو الفقيرة من الطبقة الوسطى (٦١) .

وقد ترجم الجبرتى لبعض الحرفيين البارزين فى عصره ، من أمثال الأسطى ابراهيم السكاكىنى ، صانع السكاكين والسيوف،

والذى يقول عنه الجبرتى أنه كان يجيد سقى الأسلحة ، ويطعمها بالذهب والفضة ، ويقول انه كان خطاطا أيضا ، وانه كتب بخطه كثيرا من الكتب الأدبية ومقامات الحريرى (٦٢) .

كما ترجم الجبرتى أيضا للشيخ مصطفى بن جاد ، الذى كان يعمل فى تجليد الكتب ، ويقول عنه الجبرتى انه ولد بالقاهرة بعمارة قايتباى ، وعمل فى صناعة وتجليد الكتب وتذهيبها ، وانه تتلمذ فى ذلك على الأسطى أحمد الدقدوسى ، ومهر فى هذه الحرفة وفاق أستاذه ، وأدرك دقائق الصنعة ، وعمل النقوش الذهبية والجداول ، وانفرد بدقة الصنعة بعد موت كبار الصناع مثل الدقدوسى وعثمان أفندى بن عبد الله والشيخ محمد الشناوى من العاملين فى تجليد الكتب (٦٣) .

وكانت الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى ، تتركز فى حرفة تكرير السكر وصناعة النحاس وأعمال النجارة .

وكان المغاربة يشكلون جزءا من هذه الطبقة فى مدينة القاهرة ، بعد أن استعان بهم المماليك كمرتزقة ، بينما كان جزء صغير من المغاربة يمثلون جزءا من الصفوة التجارية ، التى ظلت قائمة حتى عصر محمد على (٦٤) .

وقد عانت هذه الشريحة من الابتزاز والقروض الجبرية ، التى كان يمارسها المماليك ، حتى أصبحت فى موقف حرج ، ومعرضة لأن تصبح فى عداد العامة أو الطبقة الدنيا ، أو يهجر حرفته الى حرفة أخرى ، كما عانت من القلق الذى عاشته المدينة المصرية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، بسبب الفتن والاضطرابات التى شهدتها البلاد ، وخلال الغزو الفرنسى (٦٥) .

وكانت هذه الشريحة أكثر شرائح الطبقة الوسطى وعيا ،
على الرغم من فقرها .

وكان الجزء الأكبر من الصناع والتجار ، يمارسون نشاطهم
المهنى فى مدينة القاهرة ، خاصة فى الأحياء التجارية الكبرى ،
مثل الحمزاوى والفورية والجمالية وخان الخليلي .

وكانت الأحياء الجنوبية من القاهرة ، لا تضم الا ٢٦٪ من
اجمالى الصناع والتجار المتوسطين ، خلال الفترة ما بين عامى
١٧٧٦ و ١٧٩٨ ، أما الأحياء الغربية من المدينة فكانت تضم
١١٪ خلال تلك الفترة .

وكانت الحياة اليومية لهؤلاء التجار ، تصير وفق ايقاع ثابت،
يتمثل فى التنقل بين المحل والمنزل ، فالتاجر الذى يملك محلا فى
الشارع أو الخان ، كان يهتم بتجارته خلال النهار ، حيث يذهب
الى محله فى الصباح ، ويغلقه فى المساء مع غروب الشمس ،
وهو الوقت الذى يذهب فيه الناس للصلاة والعشاء والعلاقات
الاجتماعية ، وكان منزل التاجر منفصلا عن المحل ، وفى مكان بعيد
عن المحل احيانا .

ويقدم أندريه ريمون من خلال وثائق المحكمة الشرعية ، بعض
المعلومات عن مستوى معيشة هؤلاء التجار (٦٦) .

وهن الصعب تحديد الى أى مدى عانت هذه الفئة من تضائل
الاهمية الاقتصادية لمدينة القاهرة ، بعد أن لجأ كبار المالك وأثرياء
التجار الى استثمار أموالهم فى الالتزام وحياسة الأرض الزراعية ،
على الرغم من القول بأن أغلبية الطبقة الوسطى من التجار
والعلماء ظلوا يعتمدون على القاهرة كمركز للنشاط الاقتصادى (٦٧)،
ويدخل فى نسيج الطبقة الوسطى العلماء والفقهاء ومشايخ الأزهر

وأصحاب الوظائف الدينية ، وقد تحدد وضع العلماء ومشايخ الأزهر في إطار هذه الطبقة من خلال وضعهم الاقتصادي ، ومن خلال الدور العام الذي لعبوه في أحداث تلك الفترة .

وفيما يتعلق بثروة العلماء يمكن أن نحدد لها ثلاثة مصادر ، أولها شغل الوظائف الدينية ، وكذلك الاستفادة من الأوقاف التي اتسعت بشكل واضح خلال تلك الفترة ، بسبب القلاقل السياسية، وقد عمل بعض هؤلاء العلماء نظاراً للوقف ، وأخيراً حيازة الالتزامات الزراعية ، ومن العلماء الذين كان في حيازتهم التزامات الشيخ السادات والشيخ المهدي ، حتى الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، هذا إلى جانب تمتعهم ببعض الاعفاء الضريبي ، تحت اسم مسموح العلماء ، كما عمل بعضهم كتجار ، وعلى ذلك فقد تعددت أنشطة بعض العلماء الاقتصادية ، والنموذج الواضح لذلك هو الشيخ المهدي ، الذي عمل بأنشطة اقتصادية مختلفة ، وتاجر في سلع ومخاصيل مختلفة (٦٨) .

وكان بعض أفراد أهل الذمة ، من الأقباط والشوام والأرمن واليهود ، ينتمون إلى هذه الطبقة ، كما يمكن أن يضاف إليها الموظفون الذين كانت حياتهم ترتبط بجهاز الدولة بشكل أو بآخر ، مثل الكتبة وموظفي الضريبة وأمنية الروزنامة ، وكانت بعض هذه الوظائف تورث ، وقد ترجم الجبرتي لبعض هؤلاء الموظفين (٦٩) .

وخلال الحملة الفرنسية ، شهدت هذه الفئات قدراً من الحراك الاجتماعي ، صعوداً وهبوطاً ، بسبب تعرض بعض هذه الفئات للغرامات والمصادرات ، وتحول بعض مساتير الناس إلى فقراء ، وبسبب الحصار الاقتصادي الذي فرضه الأسطول الإنجليزي على الشواطئ المصرية ، والذي كانت له آثاره على التجارة ، كما

ارتفعت منزلة أهل الذمة من الأقباط والشوام والأروام ، الذين استعان بهم الفرنسيون في بعض المجالات ، وكذلك العلماء الذين حل بعضهم محل الأتراك في بعض الوظائف الدينية العليا (٧٠) .

كذلك فقد لاحظ الجبرتي التغييرات التي طرأت على تركيب الطبقة الوسطى ، مع بداية عصر محمد علي ، حيث أصبح الشوام والأرمن واليونانيون من بين نسيجها ، ففي يومياته عن عام ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) . يقول الجبرتي « وفتح بابه (يقصد محمد علي) لنصارى الأروام والأرمن ، فترأسوا وعلت أسافلهم ، ولبسوا الملابس الفاخرة ، وركبوا البغال والرهوانات ، وأخذوا بيوت الأعيان التي بمصر القديمة ، وعمروها وزخرفوها ، وعملوا فيها بساتين وحدائق ، وذلك خلاف البيوت التي لهم بداخل المدينة » ، وبينما كانت هذه العناصر تحتل موقع الصدارة ، تكفلت مشروعات محمد علي بتهميش بعض العناصر من أفراد الطبقة الوسطى ، مثل الحاج سالم الجوهرى مباشر إيراد الذهب والفضة في الضربخانة ، حيث يقول الجبرتي أن بعض اليهود قد وشوا بالحاج سالم الجوهرى ، فمسجنه محمد علي هو واخوته ، وباع أملاكه وحصاة التزامه ، ونفسى الشيء قد حدث لاسماعيل أفندى أمين عيار الضربخانة وأولاده ، الذين باعوا أملاكهم وعقاراتهم وفرشهم ومصاغ حريمهم وأوانيهم . كما استولى محمد علي على الدار التي كانوا يملكونها بالقلعة ، مقابل فردة قررها عليهم ، ويقول الجبرتي أن اسماعيل أفندى هذا قد مات مهموما (٧١) .

العامة (فقراء المدن) :

في أسفل الهرم الاجتماعى ، تتحدث المصادر عما يسميه المؤرخون بطبقة العامة ، وهى طبقة غير محددة المعالم فى كتابات الجبرتي ، فالجبرتي يطلق على هذه الطبقة العديد من المسميات ،

فهم فى المفهوم الأوسع العامة ، ثم هم السوقة ، والزراع ،
والجبايع ، وفى بعض الأحيان من لا دين هم ، ثم هم الزعر ،
والحرافيش ، والهوام ، والغوغاء ، وأصحاب الحرف الدنيئة ،
والجبرتى يشير الى هذه الفئات باستعلاء واضح فى مناسبات
مختلفة ، فهو يتحدث عن « هوام العامة » ، و « أوباش الناس » ،
عندما يتناول أخبار امرأة تعلقت برجل من المجاذيب ، ثم هو يتحدث
عن « الغوغاء » فى أحداث عام ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧ م) ، عندما
فرض اسماعيل بك فرضة على العديد من أصحاب الحرف وتجار
البن والبهار ، وتحرك العامة والمجاورون فى مواجهة ذلك (٧٢) ،
وعندما وصل الفرنسيون الى مشارف القاهرة ، واشتبكوا مع
المماليك فى موقعة امبابة ، يقول الجبرتى « ضج العامة والغوغاء
من الرعية واخلاط الناس » (٧٣) .

وفى أعقاب معركة امبابة ، وهروب ابراهيم بك ومماليكه
الى بلاد الشام ، وفرار مراد بك وأتباعه الى الصعيد ، يقول
الجبرتى أنه فى ذلك اليوم « اجتمعت الجعيدية وأوباش الناس ،
ونهبوا بيوت ابراهيم ومراد وبعض الأمراء » (٧٤) . ثم يتحدث
الجبرتى عن « السوقة » و « رعاع الناس » ، عندما أشار الى
الحوار الذى دار بين بونايرت والعلماء ، وعندما قال العلماء :
« ان سوقة مصر لا يخافون الا من الأتراك » . الا أن الجبرتى
يستخدم كلمة سوقة بمعنى صغار العامة ، عندما كان يتحدث عن
أوضاع القاهرة ، عقب استقرار الفرنسيين بالقاهرة ، حيث
يقول : « وفتح غالب السوقة الحوانيت والقهاوى » (٧٥) . ثم
يتحدث الجبرتى عن « الحشرات » و « الزعر » ، عندما يتناول
أعمال العنف والتجاوزات التى حدثت خلال ثورة القاهرة الاولى
(:أكتوبر ١٧٩٨) (٧٦) .

وعلى ضوء ما كتبه الجبرتي ، نستطيع أن نحدد ملامح هذه الطبقة ، على أنها كانت تتكون من أرباب الحرف والباعة المتجولين والحمالين والسقائين والحمارة والقردياتية والحواة ، أو ما يسميها الجبرتي بالحرف الدنيئة ، مثل بيع الفطير وقلبي السمك وطبخ الأطعمة (٧٧) . كذلك يمكن التمييز بين هذه الفئات من أصحاب الحرف المتواضعة ، وما يسمى اليوم بالبرجوازية الصغيرة من الحرفيين وتجار التجزئة ، الذين يعملون بانتظام في أسواق القاهرة ، وهذه الفئة كانت في وضع أفضل من الفئات السابقة (٧٨) .

كذلك يمكن الحديث في إطار هذه الطبقة ، عن طبقة كادحة من الفئات التي لا تعيش على أنشطة اقتصادية محددة ، وهذه كانت تضم الخدم والفراشين ، والخدم الخصوصيين الذين يمشون وراء السادة ، والسقائين ومؤجري الحمير والجمال والخيول والبغال ، وتشير المصادر الى أنه في عهد علي بك الكبير ، كان يوجد في القاهرة أكثر من ٢٢ ألفا من دواب الركوب يتم تأجيرها ، وما يقرب من ٣٠ ألف حمار زمن الحملة الفرنسية ، مما يدل على كثرة المشتغلين بهذه الحرفة ، بالإضافة الى ١٥ ألفا من عمال اليومية ، حسب تقديرات الحملة الفرنسية (٧٩) .

كذلك يدخل في تكوين هذه الطبقة ، الكثير من الباعة المتجولين ، وباعة الأطعمة والمواد الغذائية ، ومنهم باعة الخبز والفاكهة والمشروبات على اختلاف أنواعها (٨٠) .

وقد شهد القرن الثامن عشر نموا ملحوظا في قطاع الخدمات ، الذي كان أفرادها يعملون نظير أجور يومية ، ساعد على ذلك نمو الطبقة الوسطى ، التي اشتغلت بالتجارة ، وأصبحت في حاجة متزايدة لعمال الخدمات ، سواء تلك التي تتطلب بعض المهارات ، أو التي لا تحتاج الى مهارات (٨١) .

ويفهم مما كتبه الجبرتي ، أن هذه الفئات لم تكن بعيدة عن العمل سخرة ، فالجبرتي يذكر أن الباشا قد شرع عقب خروج الفرنسيين في بناء عمارة ، وأنه استخدم في عملية حفر الأساس لهذه العمارة أعدادا من القرداتية وأرياب الملاعب ، وغيرهم من أصحاب هذه الحرف ، حتى بطل الطبل والزمر ، على حد قول الجبرتي (٨٢) .

وقد عاشت الطبقات الدنيا في المدن ، في حارات ضيقة ، مثل حارة الحسينية ، التي كان اقتصادها يقوم على إنتاج المواد الغذائية الأساسية ، والتي كانت عرضة للتذبذبات الاقتصادية ، كتلك التي حدثت في أواخر القرن الثامن عشر ، عندما كان المالك يخرنون الأغذية خارج القاهرة ، ليستفيدوا من ارتفاع أسعارها ، وكانت هذه الفئات تسكن أحياءا في مناطق وسط المدينة ، والعطوف والحبالة والخليفة والفواله وباب اللوق ، كما كانت تتركز في مناطق أخرى من القاهرة ، مثل المنطقة الواقعة حول مسجد السلطان حسن ومسجد ابن طولون (٨٣) .

وتبقى هذه الطبقة كما لو كانت خارج التاريخ ، فلا تكتب عنها المصادر المعاصرة ، الا وقت الأزمات ، عندما يتفجر ما لدى هذه الطبقات من غليان مكبوت ، وقراءة تاريخ القاهرة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، تشير إلى العديد من تحركات العامة والطبقات الدنيا ، كانت تعبر عن ضيق هذه الفئات بالواقع السياسي والاجتماعي الذي كانت تعيشه البلاد ، ففي محرم ١٢٠٢ هـ (أكتوبر ١٧٨٧ م) ، ثارت طوائف الحرف وجماهير العامة ضد الفرضة ، التي حاول اسماعيل بك فرضها على التجار وأصحاب الحرف ، وخاصة تجار البن والبهار (٨٤) .

وفى شهر محرم ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) ، ثار أهل الحسينية على والى أحمد أغا ، بسبب كثرة تعديه على أهلها بالحبس والضرب ، ونهب أموالهم وبيوتهم ، وقاد هذه الانتفاضة أحمد سالم الجزار شيخ طائفة البيومية ، واستمرت هذه الانتفاضة من يوم الجمعة ٢٢ محرم الى يوم الثلاثاء ٣ صفر ، وانتهت بعزل والى والأغا ، كما يقرر الجبرتي ، وفيها أرغم العامة البكوات الممالك على التراجع والتفاوض مع العلماء ، وعزل والى ، وقد بدأت الانتفاضة بمحاولة والى القبض على أحمد سالم الجزار ، وخلال هذه الانتفاضة حدث اشتباك بين العامة وحسن بك الجداوى ، ونهيه قتل شخصان وجرح عدة أشخاص (٨٥) .

وفى شهر ذى الحجة ١٢٠٩ هـ (١٧٩٥ م) ، شارك العامة فى التحرك الذى بداه فلاحو قرية بشرقية بلبيس ، حين حضروا الى القاهرة يشكون من ظلم سلطات الممالك فى الاقليم ، الى الشيخ الشرقاوى ملتزم القرية ، وقد اكتسب هذا التحرك أهمية خاصة ، حيث اعتبر البعض ان الحجة التى وقعها الممالك ، يتعهدون فيها بوقف الظلم والتجاوزات ، وقبول شروط العلماء ، مجاكرتا مصرية (عهد أعظم) ، حسب رواية لويس عوض (٨٦) .

كما وضع دور العامة فى ثورة القاهرة الاولى ضد الفرنسيين (أكتوبر ١٧٩٨) ، التى بدأت فى شكل تجمهر من العامة ، احتجاجا على الضرائب التى فرضها الفرنسيون ، ثم مالبث ان تحول الى ثورة عامة ، ويفهم مما كتبه الجبرتي ، أن العباء الأكبر فى هذه الثورة قد وقع على العامة (٨٧)

وينسب محمد أنيس سرعة التحرك فى ثورة القاهرة الاولى ، الى وجود تنظيمات جاهزة للعمل ، لها قياداتها وخطوط اتصالها ،

وهى تنظيمات طوائف الحرف ، وارتباطها بالطرق جعلها قادرة على العمل ، وعلى التعبئة والحشد (٨٨) .

والقراءة المتأنية ليوميات ثورة القاهرة (عام ١٠٨٥) ضد خورشيد ، كما أوردتها الجبرتي ، تشير الى أن الثورة بدأت فى شكل تحرك شعبى ، قام به أهالى مصر القديمة فى مواجهة الجند (الدلاة) ، الذين استقدمهم خورشيد من جنوب بلاد الشام ، وكثرت تعدياتهم على الأهالى فى مصر القديمة ، وقد استمرت هذه الثورة حوالى ثلاثة شهور (٥ مايو — ٥ اغسطس) (٨٩) .

وقد اتسمت تحركات العامة خلال هذه الثورة ، بقدر من الوعى ، يفهم ذلك من الحوار الذى أورده الجبرتي على لسان العامة ، عندما مال بعض العلماء للمهادنة وتهدئة الموقف ، بعد صدور فرمان تولية محمد على واليا على مصر ، وطلبوا من العامة التخلّى عن سلاحهم فى النهار ، وحمله بالليل لحراسة أخطاطهم ، يقول الجبرتي « فلما سمع الناس ذلك أنكروه ، وقالوا ايش هذا الكلام ، حينئذ نصير طعمة للعسكر بالنهار ، وغفراء بالليل ، والله لن نترك أسلحتنا ، ولا نمثل لهذا الكلام » (٩٠) .

وقد برزت بعض القيادات الطبيعية من بين العامة ، خلال أحداث الثورة مثل حجاج الخضرى ، الذى لعب دورا واضحا فى قيادة اهالى الرملة فى حصار القلعة ، وأحبط كل المخططات الزامية لفك هذا الحصار ، كما برزت أسماء أخرى مثل اسماعيل جودة وابن شمعة شيخ الجزارين .

والدارس لانتفاضات المدن ، وتحركات العامة ، خلال هذه الفترة ، يستطيع أن يخرج بثلاث نتائج :

١ — التحام هذه الفئات بالحياة السياسية ، من ذلك مثلا إنه عندما خرج المهاليك للاقامة جيش بونايرت فى الثالث من صفر

١٢١٣ هـ (يوليو ١٧٩٨م) ، وخرج الناس ليلحقوا بجيش المماليك ،
بنصب خيام يقيمون فيها ، وقد رتبوا من يصرف عليهم من دراهمهم ،
وكذلك الدور الذى لعبه العامة فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية ،
خلال الاحتلال الفرنسى ، وكذلك هزيمة الحملة الانجليزية عام
١٨٠٧ (٩١) .

٢ — أن الطبقة الوسطى كانت دائما تستأثر بقيادة تحركات
العامة ، وتستثمر هذه التحركات بالقدر الذى يحقق مصالحها ،
فقد كانت تخشى من عنف تحريك العامة ، يفهم ذلك من تعليق
الجبرتى على أحداث ثورة القاهرة الأولى ، حيث يقول « وخرجت
العامة عن الحد ، وبالفوا فى القضية بالعكس والضد » ، والضد
هنا هو مهاجمة العامة للأملاك الخاصة للأقباط والمسلمين على
السواء ، وهو ما كان يفرع قيادات الطبقة الوسطى ، حيث يقول
الجبرتى : « وامتدت أيديهم الى النهب والخطف والسلب ، فهجموا
على حارة الجوانية ، ونهبوا دور النصارى والشوام والأروام ،
وما جاورهم من بيوت المسلمين » (٩٢) .

وربما يفسر ذلك دور العلماء فى محاولات احتواء انتفاضات
العامة خلال تلك الفترة ، ففى انتفاضة عام ١٢٠٩ هـ (١٧٩٥ م) ،
التي بدأت بسبب الظلم الذى وقع على الفلاحين ، فى إحدى
قرى الشرقية ، وتحول الى قلق عام ضد سلطات المماليك ، الأمر
الذى طلب معه المماليك التفاوض مع مشايخ الأزهر ، وعندما بدأت
هذه المفاوضات ، توجه العلماء وحدهم « ومنعوا العامة من السعى
خلفهم » ، كما يقرر الجبرتى (٩٣) .

نفس الدور نجده فى ثورة ١٨٠٥ ، عندما حاول العلماء
— باستثناء السيد عمر مكرم — وضع حد للعنف ، والاتجاه نحو
التهدئة ، بعد أن صدر الأمر بتولية محمد على ، فالجبرتى يقول :

« وفيه (ربيع الثاني ، ١٢٢ هـ) اجتمع الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وغالب المتعممين ، وقالوا ايشى هذا الحال ، وما تداخلنا فى هذا الأمر والفتن ، واتفقوا أنهم يتباعدون عن الفتنة ، وينادون بالأمان ، وأن الناس يفتحون حوانيتهم ، ويجلسون بها ، وكذلك يفتحون أبواب الجامع الأزهر ، ويتعبدون بقراءة الدروس ، وحضور الطلبة ، وركبوا الى محمد على ، وقالوا له أنت صرت حاكم البلدة ، والرعية ليس لهم مقارشة (دخل) فى عزل الباشا ، ونزوله من القلعة ، وقد أتاك الأمر فنفذه كيف شئت » (٩٤) .
لقد كانت الطبقة الوسطى تحاول الاستفادة من تحركات العامة ، بينما كان يرهبها عنف هذا التحرك ، فندسعى لاحتوائه .

٣ - أن قدرا من الوعي قد تمتعت به هذه الفئات خلال تلك الفترة ، واضح ذلك من مهاجمتها لمشايخ الأزهر خلال ثورة القاهرة الثانية ، عندما أشيع أنهم يتدخلون لوقف أعمال الثورة ، حيث ضرب العامة الشيخ الشرقاوى والشيخ السرسى ، واتهموهم بخذلان المسلمين لحساب الفرنسيين ، والحصول على رشوة من الفرنسيين (٩٥) ، وكذلك فيما أورده عن ثورة القاهرة عام ١٨٠٥ ، وظروف وصول محمد على الى السلطة (٩٦) .

الطبقات الريفية :

يمكن فهم البناء الطبقي فى الريف خلال تلك الفترة ، على ضوء دراسة عدد من التطورات التى شهدتها البلاد ، وأبرزها :

اولا : التطورات التى حدثت فى نظام الضرائب وحياسة الأرض :

فقد ألغى العثمانيون النظام الاقطاعى الذى كان معمولاً به فى العصر المملوكى ، حتى يحرموا بقايا الممالك من مصادر قوتهم المادية ، واستعاضوا عن ذلك النظام بنظام الاعانات ، الذى

مالبث أن تطور إلى نظام الالتزام ، الذى أصبح معترفاً به من قبل الإدارة العثمانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر (٩٧) ، ويرجع أقدم سجل وصل إلينا عن هذا النظام الى عام ١٦٥٨ ، وفى البداية كان نظام الالتزام يقوم على اعطاء حق جباية الضرائب كامتياز لمدة عام ، ومع استمرار التدهور فى أوضاع السلطة العثمانية ، أصبح الالتزام يمنح لمدى العمر كله ، ثم أصبح يورث وبيع ، ويمكن التنازل عنه للغير ، وابتداء من عام ١٧٢٨ صار هذا الوضع معترفاً به من قبل الإدارة المالية (الروزنامة) (٩٨) .

وقد أوجدت هذه التطورات عدداً من الظواهر فى الحياة الزراعية المصرية ، منها :

١ - **اتساع الأوقاف** : بسبب الحقوق المتزايدة التى حصل عليها الملتزمون على الأراضى الزراعية ، والتى وصلت الى حد الملكية الخاصة ، خاصة على أراضى الوسية ، ذلك أن القاعدة الإسلامية فى الوقف تقوم على أن تكون الأرض المراد وقفها مملوكة ملكية كاملة للواقف ، حدث ذلك على الرغم من أن الدولة كانت من الناحية النظرية لاتزال تملك حق رقبة الأرض ، وثمة عامل آخر كان وراء ظهور الأحباس أو الوقف الأهلى ، هو القلق الذى عاشته البلاد خلال تلك الفترة ، وشيوع المصادرات ، وفى مواجهة هذه الظاهرة حصل بعض حائزى الأرض من الملتزمين (٩٩) .

٢ - **دخول التجار الى دائرة الالتزام وحياسة الأرض** : ويرجع ذلك الى التطورات التى حدثت فى نظام الالتزام ، وهى تطورات مثلت عنصر جذب لكبار التجار ، وفى نفس الوقت ثمان رأس المال التجارى المستثمر فى المدن ، كان يواجه مصاعب متزايدة ، بسبب القلق السياسى الذى عاشته المدينة المصرية ، وأخيراً تدهور تجارة البن ابتداء من عام ١٧٣٠ ، بسبب المنافسة

التي أشرنا إليها ، وتشير المصادر الى أن تجار البن كانوا أسرع من غيرهم في حيازة الالتزامات (١٠٠) ، ويفهم مما كتبه الجبرتي أن دخول التجار الى دائرة الالتزام قد أحدث بعض التغيير في علاقات الانتاج في الريف ، فالجبرتي يشير الى أن ابراهيم حفيد الدادة الشرايبي كان يعاون فقراء الفلاحين ، ويقرضهم التقاوى واحتياجات الزراعة وغيرها (١٠١) .

ثانيا : تطور علاقة الريف بالمدينة :

وهذه تعرضنا لها في صدر هذه الدراسة .

ثالثا : محاولات الرأسمالية الأوروبية ربط الدلتا بالسوق العالمي :

حيث تشير المصادر الى أن الدلتا أصبحت في نهاية القرن الثامن عشر ، تشكل أهمية خاصة بالنسبة للأوروبيين كمصدر للفلال ، التي ارتفعت أسعارها ، وخاصة في فرنسا ، بسبب فشل الزراعة الفرنسية لأسباب مختلفة خلال تلك الفترة .

وقد تمكن المرابون ومسلفو النقود وعملاء الأوروبيين من التغلغل في الدلتا ، لاقتراض الفلاحين الأموال بفوائد عالية بلغت ١٥ ٪ في بعض الأحيان ، من أجل الحصول على المحاصيل الغذائية وخاصة الأرز ، على الرغم من معارضة المهاليك .

وكان لمسلفي النقود وسائلهم الخاصة في النفاذ الى عمليات زراعة الأرز ، والمحاصيل التي تدخل في اطار التصدير ، وكان عملاء تجارة الأرز الرثيسيون من الأتراك ورعاياهم من اليونانيين ، وقد اضاف هذا النشاط مشكلات جديدة ، بالاضافة الى المشكلات التي كان يعاني منها الريف المصري في ذلك الوقت في كل نظام الالتزام .

ويؤكد التاريخ الاجتماعي لكل من دمياط ورشيد ، وجود قدر من العداء بين السكان المحليين ونشاطات الأوربيين وعمالهم ، التي كانت تهدف الى تصدير المحاصيل الغذائية ، وخاصة الأرز ، ومحاولات الأوربيين انشاء قنصليات لهم في هذه المناطق .

ولم تكن أحداث العنف التي شهدتها دمياط خلال تلك الفترة مصدرها الطبقات الشعبية ، التي لم تكن تعتمد على الأرز في غذائها ، بل كان مصدرها الطبقات العليا التي يدخل الأرز في طعامهم ، وعلى ذلك فإن هذا الصراع كان قائما بين أغنياء الفلاحين وتجار الأرز المحليين وعمال الملتزمين في الريف وأدواتهم من جانب ، وعمال الرأسمالية الأوربية من اليونانيين والمسحيين الشوام والفرنسيين من جانب آخر . وكانت دمياط ورشيد ميدانا لهذا الصراع ، وتؤكد تلك الانتفاضات وأحداث العنف ، رفض محاولات الأوربيين إقامة رؤوس جسور لهم في الدلتا ، كانوا يطمعون منها أن تمتد تلك الجسور ، ليسيظروا من خلالها على اقتصاديات البلاد (١٠٢) .

وعلى ذلك يمكن القول بأن الحقوق المتزايدة للملتزمين على الأرض ، ودخول رأس المال التجارى الى مجال الزراعة في الدلتا ، ونمو الاقتصاد النقدي ، قد خلق امكانيات جديدة لاستغلال الفلاحين ، كما خلق امكانيات لوجود قدر من الحراك الاجتماعي في الريف ، تمثل في ظهور نواة لطبقة من أعيان الريف خلال تلك الفترة (١٠٣) .

وثمة عوامل أخرى ساعدت على وجود هذه الشريحة ، منها أن مشايخ القرى كان لديهم مساحات من الأرض معفاة من بعض الضرائب الإضافية ، وذلك مقابل أدائهم لوظائفهم ، وفي نفس الوقت كان لبعض مشايخ القرى وسائلهم غير المشسروعة في الحصول على الأموال ، حيث كانوا يشاركون بعض الصيارف في

الحصول على رثوة من الفلاحين ، مقابل التفاضى عن تأخر
الفلاحين فى دفع الأموال المقررة عليهم ، وفى هذا يشير الجبرتى
الى أن مشايخ القرى كانوا يستفيدون من جو الظلم والتجاوزات ،
التي كانت تحدث فى ذلك الوقت ، حيث يقول الجبرتى : « وكذلك
أشياخهم (يقصد الفلاحين) اذا لم يكن الملتزم ظالما ، لا يتمكنون
هم أيضا من ظلم فلاحهم ، ولا حصل لهم الرواج ، الا بطلب الملتزم
بالزيادة والمغارم ، فيأخذون لأنفسهم فى ضمنها ما أحبوا ، وربما
وزعوا خراج أطيان زراعتهم على الفلاحين » ، ويقول الجبرتى
فى معرض هذا الحديث « أن شمس الدين بن حمودة أحد مشايخ
قرية برما بالمنوفية ، كان فى حيازة أسرته ألف فدان ، لا علم
للملتزم بها ، وذلك خلاف ما بأيديهم من الرزق التى يزرعونها بالمال
اليسير ، وأطيان الأنسبلة والمساجد ، التى تحت أيديهم من غير
شئ ، وخلاف فلاحتهم الظاهرة بالمال القليل » (١٠٤) .

وثمة مصدر آخر لتكوين ثروات مشايخ القرى خلال تلك
الفترة ، وهو دور الوساطة الذى لعبه مشايخ القرى بين الفلاحين
وتجار المدن ، حيث عمل بعضهم كوكلاء للتجار فى شراء المحاصيل
من الفلاحين ، كما عمل بعضهم فى تسليف النقود للفلاحين
المحتاجين ، مقابل حصولهم على قيمة الدين من المحصول عند
نضجه ، وفى أبريل أو مايو عام ١٧٧٩ اشترى الحاج طه شيخ
الخيارية (دقهلية) ١٥ ضريبة أرز ، ثمنها ١٨٠ ريالا من أخوين
من قرية البدالة المجاورة ، على أن تسلم عند نضج المحصول (١٠٥) .

وعلى ذلك ، فمع نهاية القرن الثامن عشر ، كانت هناك
شريحة من أعيان القرى ، تحتل موقع الصدارة فى مجتمع القرية ،
وظل بعضها يحتفظ بهذا الوضع طوال القرن التاسع عشر ، كما
يؤكد علي مبارك فى الخطط التوفيقية (١٠٦) .

وقد لعب بعض هؤلاء الأعيان دورا واضحا فى مقاومة الاحتلال الفرنسى ، والحيلولة دون استقرار سلطة الفرنسيين فى الريف ، وفى الانتفاضات التى حدثت فى شهر نوفمبر ١٧٩٨ ، اتهم الفرنسيون مشايخ ادكو وادفينا ، بأنهم كانوا وراء تلك الانتفاضات ، ومن ثم أحضرهم الفرنسيون الى رشيد ، حيث تم اعدامهم رميا بالرصاص ، وعقب اخماد ثورة القاهرة الاولى (أكتوبر ١٧٩٨) ، قامت وحدات من الجيش الفرنسى بالطواف بالقرى التى شاركت فى الثورة أو التحريض عليها ، كما ألقت هذه الوحدات القبض على بعض الأعيان ومشايخ القرى ، بتهمة الاشتراك فى الثورة ، وعادت بهم الى القاهرة ، حيث أعدم البعض ، واعتقل البعض الآخر ، وكان من بين الذين أعدموا سليمان الشواربى شيخ بلدة قليوب ، وتشير المصادر أيضا الى الدور الذى لعبه حسن طوبار شيخ قرية المنزلة ، وأبو قورة شيخ قرية ميت العامل ، وعلى العديسى ، فى انتفاضات المنصورة ودمياط ، وفى محاولة القوات الفرنسية القضاء على الأعيان الثلاثة ، حدثت معركة كبيرة عند الجمالية ، بين عناصر المقاومة من الفلاحين ، والقوات الفرنسية ، كما لعب ابن شعير شيخ قرية عثما (منوفية) دورا مماثلا فى الفكاح ضد الفرنسيين ، وفى محاولة القضاء عليه ، دارت معركة انتهت بقتله ، بعد أن حاصرت القوات الفرنسية قرية عثما ، وسوف يلعب أعيان الريف دورا واضحا فى التطورات التى شهدتها القرن التاسع عشر (١٠٧) .

الفلاحون فى نهاية القرن الثامن عشر :

تؤكد بعض الدراسات عن الريف المصرى خلال تلك الفترة ، أن ضريبة الميرى قد تضاعفت أربع مرات خلال الفترة ما بين عامى ١٦٥٨ ، ونهاية القرن الثامن عشر ، وأنها اختلفت من قرية لأخرى ، وأن هذه الزيادات أصبحت تعرف بالمال المضساف ، وأن المال

المضاف كان يقرر فى بعض الأحيان لمواجهة العجز المتزايد فى إيرادات الخزانة .

وكان مجموع الضرائب التى يدفعها الفلاح ، تعرف باسم المال الحر ، وكان يتراوح ما بين ٩٠ ميديا (بارة) ، و ٣٠٠ ميديا عن الأراضى الجيدة .

لقد زيدت ضرائب الأرض خلال العصر العثمانى عدة مرات ، ومع نهاية القرن الثامن عشر أصبح النظام الضريبى فى مصر بعيدا عن العدالة ، فمن ناحية لم تشهد فترة الحكم العثمانى عمليات مسح للأراضى الزراعية ، وإعادة تقويم لضرائبها ، على الرغم من التغييرات التى طرأت على مساحة الأرض المزروعة وخصوبتها، وأن كانت هناك بعض الجهود المحلية ، التى كان يقوم بها الملتزمون والموظفون المحليون ، من أجل تحقيق قدر من العدالة فى هذا الاتجاه .

وفى البداية (القرن السادس عشر) ، كان الخراج والمال الحر متقاربين ، وكان الجزء الأكبر من الضرائب المحصلة من الأرض يذهب للخزانة ، ولم يكن سوى قدر قليل من هذه الأموال يذهب للإدارة المحلية ، وتدرجيا أصبح المتحصل الإجمالى فى تناقص ، وكان العامل الرئيسى فى هذا النقص هو التدهور الشديد فى قيمة العملة فى مصر (١٠٨) .

وكنتيجة لتدهور العملة ، وما صاحب ذلك من تضخم فى الأسعار ، وبسبب الانفاق المتزايد لسلطات الممالك فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ازدادت الضرائب على الأرض ، وأصبحت قيمة المضاف تبلغ ٢٠٠٠ بارة عن كل ٢٥ ألف بارة من المال القديم ، كما أصبح متوسط الضريبة على اللندان تصل إلى ٧ بارات فى نهاية القرن الثامن عشر ، بينما ارتفع دخل الدولة

من الضرائب على الأرض الزراعية من ٣١٢ر٤٧٨ر٤٤٤ بارة عام ١٥٩٦ ، الى ٣٨٩ر٢١٢ر٧٥٥ بارة عام ١٧٩٨ ، بزيادة قدرها ٦٠٪ ، وهي زيادة قد تبدو عادلة بالقياس بالتدهور الذى حدث فى قيمة العملة ، لكن الحقيقة أن المال الحر قد زاد من ٥٠ مليون بارة تقريبا مع نهاية القرن السادس عشر ، الى ٢٥٠ر٨٠٠ر١١١ بارة عام ١٧٩٨ ، أى بزيادة تصل الى ٨٠٠٪ ، كان يذهب منها ٢١٪ فقط الى الخزانة ، و ١٢٪ الى الادارة المحلية والموظفين المحليين ، أما الباقي وتبلغ نسبته ٦٧٪ ، فكان يذهب الى الملتزمين وعملائهم (١٠٩) .

وعلى هذا فمع نهاية القرن الثامن عشر ، كان المتحصل من الفلاحين لصالح الملتزمين والسلطات المحلية من الفايز والبرائى والكشوفية يفوق الضريبة الأصلية ، وهى الميزى ، التى تذهب للسلطات المركزية (١١٠) .

والى جانب هذه الضرائب الرسمية ، وشبه الرسمية ، عانى الفلاحون خلال تلك الفترة من النهب والمصادرات ، التى كانت تعرف بالكلف والفرد والمظالم ، التى أفاض الجبرتى فى الحديث عنها ، وفى نفس الوقت فإن التحولات التى شهدتها الدلتا ، والتى سبق الإشارة إليها ، لم يكن ليستفيد منها صغار الفلاحين ، فالفلاح العادى الذى كان يعمل بأدواته البسيطة ، ويخضع لتلك الضرائب الباهظة ، والابتزاز المستمر ، كان من الصعب أن يجد فائضا من رأس المال لديه أو لدى جيرانه ، لانتاج المحاصيل الأكثر ادرارا للربح ، وبينما كانت الفئات القادرة فى مجتمع القرية ، تستطيع انتاج مثل هذه المحاصيل ، كانت أوضاع فقراء الفلاحين آخذة فى التدهور (١١١) . فلا عجب أن تتحدث المصادر عن وجود شريحة من الفلاحين المعدمين فى الريف المصرى ، يعملون بحساب

غيرهم من أغنياء الفلاحين ، فى وقت كان الريف المصرى يعانى فيه بشكل واضح من قلة عدد السكان ، وترجع الباحثة الأمريكية هيلين ريفيلين ذلك الى قدرة الملتزمين خلال تلك الفترة على تجريد الفلاحين الذين يعجزون عن دفع الضرائب من أراضيهم ، الأمر الذى كان يضطرهم الى العمل لدى الآخرين ، اذا لم يهاجروا من الاقليم بأكمله (١١٢) .

ومما زاد من يؤس الفلاحين خلال تلك الفترة ، أن الريف أصبح ميدانا للصراع بين أجنحة الممالك ، خاصة الصعيد الأعلى ، الذى أصبح مسرحا للصراعات والقتال بين الممالك الفارين من سلطة القاهرة ، بعد القضاء على حركة شيخ العرب همام (١٧٦٥ - ١٧٦٩) ، ونتيجة لذلك أصبحت المنطقة فى حالة من الضنك ، ويفسر جيرار تدهور أوضاع الريف المصرى خلال تلك الفترة بشكل عام ، الى وسائل الممالك فى الحصول على النأض ، وكانت تعتمد على القوة ، والى عدم الاهتمام بتحسين الأرض ، أو اصلاح الزراعة (١١٣) .

ويغل محمد أنيس تزايد الأعباء الضريبية على القطاعات المنتجة خلال تلك الفترة ، يتطلع الممالك الى مشروعات كبيرة ، تطلبت الكثير من الأموال ، ابتداء من على بك الكبير ، فمشروعات ذلك الرجل وطموحاته تطلبت تكوين قوة عسكرية كبيرة وحديثة نسبيا ، اعتمد فى تكوينها على المرتزقة ، الى جانب القوة التقليدية للممالك ، كما جهز جيشه بقوة من المدفعية ، لعبت دورا كبيرا فى حملته على سوريا ، وقد استمرت هذه السياسة فى عهد خلفائه محمد بك أبو الذهب وابراهيم ومراد .

ان استخدام هؤلاء المرتزقة على نطاق واسع ، الى جانب استخدام الأسلحة الحديثة ، فضلا عن اسراف الممالك ، هو

المسئول عن زيادة الضرائب خلال تلك الفترة ، والضغوط الاقتصادية التي عانت منها الطبقات المنتجة في الريف والمدينة (١١٤) .

ولذلك فقد شهدت تلك الفترة قدرا من القلق في المجتمع الريفي ، اتخذ عدة مظاهر ، منها هجرة الفلاحين الى بلاد الشام ، والانتفاضة ضد السلطة ، حيث يصف الرحالة الفرنسي سويني ، الذي زار الصعيد عام ١٧٧٨ ، الاضطرابات التي كانت تموج بها المنطقة الواقعة الى الجنوب من اسيوط حتى قنا ، بأنها ابعد ما تكون عن الاستقرار ، فالفلاحون في القرى المجاورة لطهطا كانوا في حالة ثورة ، ورفضوا دفع الضرائب ، وانضم اليهم العرب المستقرون ، واستطاعوا هزيمة قوة الكشاف (حكام الاقليم) التي تجمعت لمواجهةهم ، وانه اضطر الى ركوب واحدة من المراكب الكبيرة ، التي كانت تحمل القمح الى العاصمة (١١٥) .

كما كان الفلاحون في وقت الازمات ، يلجأون الى المدن الكبرى ، كما يذكر الجبرتي في أحداث عام ١١٠٦ هـ (١٦٩٤) ، حيث كانت البلاد تعاني من الشدة والفلاء ، فقد حضر أهالي القرى والأرياف الى القاهرة ، حتى امتلأت بهم الأزقة (١١٦) .

كما أن التحرك الذي شهدته القاهرة عام ١٧٩٥ ، قد بدأ بوصول فلاحى احدى قرى الشرقية الى القاهرة ، يحتجون على ظلم السلطات المملوكية في الاقليم ، ويستغيثون بالشيخ الشرقاوى (١١٧) .

لقد كانت أوضاع الريف في نهاية القرن الثامن عشر أبعد ما تكون عن الاستقرار ، ومع الغزو الفرنسي زادت معاناة الفلاحين ، كما زادت أوضاع الريف ترديا ، فمن ناحية حرص الفرنسيون على

تحصيل كل الضرائب ، التى كانت تحصل من الريف قبل وصولهم ،
بصرف النظر عن مشروعية هذه الضرائب (١١٨) .

يتضح ذلك من الأمر الذى أصدره بونابرت فى ١٧ أغسطس
١٧٩٩ ، والذى جاء فيه « أن السلطات الفرنسية سوف تحصل
على الميرى ، وكافة الضرائب المستحقة على الأرض الزراعية ،
دون النظر للأموال التى قام الفلاحون بتسديدها قبل وصول
الفرنسيين » . كذلك أشار هذا الأمر الى زيادة الضرائب فى عدد
من الأقاليم ، وفى نفس الوقت عمل الفرنسيون على تحصيل العديد
من الاتاوات بين الحين والحين ، متعللين بالثورات والانتفاضات ،
التى كان يقوم بها الفلاحون ، ففى الأمر الذى أصدره كليبر فى
١٤ نوفمبر ١٧٩٩ ، فرض مبلغ ٦٠ ألف بوظقة على إقليم الغربية ،
و ٣٠ ألفا على إقليم القليوبية ، ومثلها على إقليم الشرقية والجزيرة
ورشيد ، و ٦٠ ألفا على منوف كضريبة غير عادية ، يصير
استقطاعها من المال الشئوى المقرر على هذه الأقاليم ، هذا
بالإضافة الى الأموال التى كان يحصلها الوكلاء الأقباط
لحسابهم (١١٩) .

كذلك فان وصول الفرنسيين ، لم يضع حدا للنهب والتهديد
الذى كان يتعرض له الفلاحون من قبل البدو ، الذين استمر
تهديدهم للريف ، مما جعل بعض مشايخ القرى ، يطلبون حماية
السلطات الفرنسية ، حتى يتمكنوا من زراعة أراضيهم ، وقد
أضاف الحصار الانجليزى للشواطئ المصرى عاملا جديدا لمعاناة
الفلاحين ، فقد تسبب هذا الحصار فى وقف تصدير الأرز ، مما
أدى الى انخفاض أثمانه ، وبالتالي عجز الفلاحون فى هذه المناطق
عن سداد الأموال المطلوبة منهم ، كما أدى ذلك أيضا الى توقف
التجار عن تقديم القروض للفلاحين لتمويل زراعة الأرز فى تلك

المناطق ، الأمر الذى كان مصدر شكوى الفلاحين فى مناطق دمياط وما حولها (١٢٠) .

وعلى ذلك يمكن القول بأن أوضاع الفلاحين قد ازدادت سوءاً فى ظل الحكم الفرنسى ، فالفرنسيون لم ينفذوا إصلاحات جوهرية فى الرى ، أو فى نظام حيازة الأرض ، ذلك لأن مشروع مينو لإصلاح نظام الحيازة ، لم يقدر له أن يوضع موضع التنفيذ ، وتركز اهتمام الفرنسيين فى تحصيل أكبر قدر من الضرائب ، التى وقعت على كاهل الفلاحين ، ولم تكن وسائل الفرنسيين فى تحصيل الضرائب تقل قسوة عن وسائل المماليك فى ذلك ، وقد تحدث الجبرتى عن وسائل الفرنسيين ، التى تصل الى حد الحرق والضرب بالمقارع والكتسارات (١٢١) .

وهذا يفسر - الى جانب عوامل أخرى - عنف مقاومة الفلاحين وصفار الأعيان ، لمحاولات الفرنسيين تأسيس سلطة لهم فى الريف ، وقد أعقب خروج الفرنسيين فترة لا تقل فى تمسوتها على الفلاحين ، عن الفترة التى سبقتها ، حيث أصبح الريف - وخاصة صعيد مصر - ميداناً لصراع عنيف بين محمد على والمماليك ، اناضت المصادر فى الحديث عنه ، وهى فترة استثمرت حتى عام ١٨١١ ، عندما تمكن محمد على من القضاء على المماليك ، وتأسيس سلطة قوية فى الريف .

وينبغ أن التغييرات الأولى التى أحدثها محمد على فى القطاع الزراعى لقيت ارتياحاً من جانب الفلاحين ، ينهم ذلك منها سجله الجبرتى على لسان الفلاحين فى أحداث عام ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م) (١٢٢) .

هوامش الفصل الأول

- (١) يرجع د . محمد أنيس أن الجبرتي مات في الفترة ما بين أول ربيع ثاني و ٢٧ رمضان عام ١٢٤٠ هـ (٢٣ نوفمبر ١٨٢٤ — ١٤ مايو ١٨٢٥ م ٢) ، وذلك اعتمادا على وثائق المحكمة الشرعية ، د . محمد أنيس : حقائق من عهد الرحمن الجبرتي مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلدان ٩ و ١٠ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٢ .
- والجبرتي نسبة الى اقليم جبرت من اقليم زيلع في بلاد الحبشة ، ومنه هاجرت أسرة الجبرتي في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) .
- (٢) د . أحمد عزت عبد الكريم : دراسات وبحوث ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٢٠ ، ٢١ .
- (٣) المرجع السابق : ص ٢١ .
- (٤) عجائب الآثار : ج ١ ، ص ٣٩٦ .
- (٥) عبد الرحمن الجبرتي : دراسات وبحوث ، ص ٤٩ .
- (٦) عجائب الآثار : ج ٢ ، ص ١٩٦ — ٢٠٠ .
- (٧) عبد الرحمن الجبرتي : دراسات وبحوث ، ص ٢٣ .
- (٨) عجائب الآثار : ج ٢ ، ص ٢٢٤ .
- (٩) كان الجبرتي قد أخرج الجزء الخاص بفترة الحملة الفرنسية تحت عنوان « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين » ، ثم أجرى عليه بعض التعديلات بطريقة جعلته أكثر موضوعية ، مع إضافة أحداث الفترة من ١٢١٦ — ١٢٢٠ هـ .
- (١٠) أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة : ج ٢ ، ص ١١٣٠ ، ١١٣١ .
- (١١) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٦٥ .
- البرت خوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٥١ .

Shaw, S.J. : History of the Ottoman Empire
and Modern Turkey, Cambridge Univ. Press, 1976, P. 225. (١٢)

Shaw : Op. Cit., PP. 253, 254. (١٣)

(١٤) د . محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .
Shaw : Op. Cit., P. 223. (١٥)

Ibid, : P. 224. (١٦)

Ibid. : P. 247. (١٧)

(١٨) د . محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ١٦٧ .
(١٩) محمد عباره . تيارات البقطة الإسلامية الحديثة ، كتاب الهلال ،

أغسطس ١٩٨٢ ، ص ١٦ .
وقد ناقش محمد أنيس المظاهر التي اتخذها الاستعمار الأوربي في المنطقة
العربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، محمد أنيس : المرجع السابق ،
ص ١٨٩ ، ١٩١ .

(٢٠) السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، من الفتح
العثماني الى الاحتلال البريطاني ١٥١٧ - ١٨٨٢ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ،
١٩٧٠ ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

Anis, M. : England and the Suez Route in
the Eighteenth Century, Cairo, 1957, PP. 32 — 35.

(٢١) المرجع السابق : ص ٨٥ .
Anis, M. : Op. Cit., P. 32. (٢٢)

بيتر جران : الجذور الإسلامية للرأسمالية لمصر ١٧٦٠ - ١٨٤٠ ، ترجمة
محروس سليمان ، دار الفكر للدراسات ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ٣١ .

(٢٣) حراز : المرجع السابق ، ص ٨٥ ، ٨٦ .
(٢٤) حول مظاهر المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي ، انظر : عبد الرحمن
الرانمى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، ج ١ ، مكتبة النهضة
المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٣٨ - ٤١٦ .

(٢٥) حراز : المرجع السابق ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ .
(٢٦) محمد أنيس ، والسيد رجب حراز : التطور السياسي للمجتمع المصري

الحديث ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٧٨ - ٨٠ .

- (٢٧) ناقش محمد فؤاد شكرى أحداث هذه الفترة تفصيلا ، فى كتابه : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ - ١٨١١ ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٨ ، ج ١ ، أيضا : حراز : المرجع السابق ، ص ١٥٧ - ١٧٩ .
- (٢٨) البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة : أصدرته جامعة عين شمس ، ١٨٩٠ ، قاسم عبده قاسم : علاقات مصر بعالم البحر الأحمر فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .
- (٢٩) آلان ريتشاردز : التطور الزراعى فى مصر ١٨٠٠ - ١٩٨٠ ، ترجمة أحمد فؤاد سيف النصر ، كتاب الأهلى رقم ٢١ ، القاهرة ، يوليو ١٩٩١ ، ص ١٥ .
- (٣٠) Raymond, A. : *Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe Stecle, Tome I, Damas, 1973, P. 80.*
- (٣١) هاملتون جب ، وهارولد بوين : المجتمع الإسلامى والغرب . ج ٢ ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ١٦٢ - ١٦٥ .
- (٣٢) على الجريتلى : تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ١٨ - ٢٠ .
- (٣٣) جيرارد : وصف مصر ، المجلد الرابع ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٩٦ ، ١٩٨ .
- (٣٤) Owen R. : *Cotton and the Egyptian Economy 1820 Oxford, 1969, PP. 6, 7.*
- (٣٥) أحمد أحمد الحنة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، على الجريتلى : المرجع السابق ، ص ١٨ - ٢٠ .
- (٣٦) المرجع السابق : ص ١٨ - ٢٠ .
- (٣٧) بيتر جران ، المرجع السابق .
- (٣٨) عبد الرحمن نهى : النقود المتداولة أيام الجبرئى فى عبد الرحمن الجبرئى ، دراسات وبحوث ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٥٥٨ ، ٥٥٩ .
- (٣٩) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار : طبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٩٧ هـ ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ .
- (٤٠) عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٩ .

(٤١) عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ٧٠ ، حواشي شهر رجب ١
Vansleb, R.D. : The Present State of Egypt (٤٢)
1672 — 1673, London, 1972, P. 149.

(٤٣) عجائب الآثار : ج ٢ ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٤٤) عجائب الآثار : ج ٢ ، ص ١٠٤ .

(٤٥) آلان ريتشاردز : المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٤٦) محمد جابر الأنصاري : قراءة جديدة في تاريخ الجبرتي ، معالم
الخلفية الاجتماعية التاريخية لحركة النهضة العربية ، المجلة العربية للعلوم
الانسانية ، تصدرها جامعة الكويت ، العدد ٣١ ، المجلد الثامن ، ١٩٨٨ ، ص
٢٧ — ٣٠ .

(٤٧) هيلين رينيلين ، الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن التاسع
عشر ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٤٠ .

(٤٨) جران : المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ .
Shaw, S. : Ottoman Egypt in the age of the French
Revolution, Harvard Univ. 1964, P. 10.

(٤٩) حكمت أبو زيد : المجتمع القاهري في عهد الحملة الفرنسية ، ضمن
الجبرتي ، دراسات وبحوث ، ص ٣٤٥ .
Shaw. : Op. Cit., P. 12.

(٥١) حراز : المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

(٥٢) رينيلين : المرجع السابق ، ص ٦٢ — ٦٥ .

(٥٣) حراز : المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

ومن أحداث تلك الفترة ، انظر : عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ٤٠٩ .

(٥٤) Raymond : Op. Cit., PP. 400 , 401.

(٥٥) عجائب الآثار : ج ١ ، ص ١٧٦ ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ، ٢٥٥ .
Raymond : Op. Cit., P. 405.

(٥٦) عجائب الآثار : ج ١ ، ص ٨٧ ، أيضا عبد الرحيم عبد الرحمن :
نشوء الرأسمالية المصرية المحلية خلال العصر العثماني ١٥١٧ — ١٧٩٨ ، مجلة
كلية الدراسات الانسانية ، جامعة الأزهر ، العدد الثالث ، ١٩٨٥ ، ص ٣١٦ .
٢١٨ .

(٥٧) جران : المرجع السابق ، ص ٤٨ ، ٣٩ .

Raymond, Op. Cit., PP. 392, 393, 396. (٥٨)

(٥٩) عجائب الآثار : ج ٢ ، ص ٢٢٦ .

Raymond : Op. Cit., P. 382. (٦٠)

حول توزيع الأنشطة الاقتصادية في القاهرة في القرن الثامن عشر ، انظر :
أندريه ريمون : القاهرة تاريخ حاضرة : ترجمة لطيف قرج ، دار الفكر للدراسات
والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ٢٢٤ - ٢٣٠ .

(٦١) وصف مصر : دي شيرول ، دراسة عادات وتقاليد سكان مصر ،
المحدثين ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٩ .

(٦٢) عجائب الآثار : ج ١ ، ص ٢٥٠ .

(٦٣) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ .

(٦٤) جران : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٦٥) دي شيرول : المرجع السابق ، ص ١٠ .

Raymond : Op. Cit., PP. 396, 397. (٦٦)

(٦٧) جران : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٦٨) ريفيلين : المرجع السابق ، ص ٥٢ - ٥٧ ، على بركات : تطور الملكية
الزراعية وأثره على الحركة السياسية ١٨١٢ - ١٩١٤ ، الثقافة الجديدة ، ١٩٧٧ ،
ص ١٦ ، عجائب الآثار : ج ٤ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٧ .

(٦٩) عجائب الآثار : ج ٢ ، ص ١٧١ .

(٧٠) حكمت ابو زيد : المجتمع القاهري في عهد الحملة الفرنسية ، في

الجبرتي ، دراسات وبحوث ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ٤٢ .

(٧١) عجائب الآثار : ج ٤ ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٧٢) عجائب الآثار : ج ٢ ، ص ١٠٦ ، ١٥٢ .

(٧٣) عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ٨ .

(٧٤) عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ١٠ .

(٧٥) عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ١١ .

(٧٦) عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ٥ .

(٧٧) عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ٦٠ .

Raymond : Op. Cit., P. 322. (٧٨)

(٧٩) وصف مصر : عادات المصريين !المحدثين ، ترجمة زهير الشايب ،

مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٩ ، ١٠ .

Raymond : Op. Cit., P. 384.

- (٨٠) جران : المرجع السابق ، ص ٥٤ .
(٨١)
(٨٢) عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ٦٠ .
(٨٣) Raymond : Op. Cit., P. 388.
(٨٤) عجائب الآثار : ج ٢ ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .
(٨٥) عجائب الآثار : ج ٢ ، ص ١٨٩ ، أندريه ريمون : المرجع السابق ، ص ٢١٢ .
(٨٦) عجائب الآثار : ج ٢ ، ص ١٨٩ ، لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، الخلفية التاريخية ، كتاب الهلال ، فبراير ١٩٦٩ ، ص ٦٣ .
(٨٧) عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ٢٥ .
(٨٨) محمد انيس ، والسيد رجب خراز : المرجع السابق ، ص ٥٤ .
(٨٩) حول يوميات الثورة ، وحصار القلعة ، انظر : عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ٣٢٨ - ٣٤١ .
(٩٠) عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ٣٣٧ .
(٩١) حكمت ابو زيد : المرجع السابق ، ص ٢٥٢ .
وعن دور هذه الفئات فى ثورتى القاهرة الاولى والثانية ، وهزيمة الحملة الانجليزية انظر : عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ١٠٠ ، ج ٤ ، ص ٥٥ .
(٩٢) عجائب الآثار : ج ٢ ، ص ١٠٠ .
(٩٣) عجائب الآثار : ج ٢ ، ص ٢٥٨ .
والعلماء الذين حضروا الاجتماع هم الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى والشيخ الامير والشيخ البكرى ونقيب الاشراف .
(٩٤) عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ٣٣٧ .
(٩٥) عجائب الآثار : ج ٢ ، ص ١٩ .
(٩٦) عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ٣٣٧ .
(٩٧) Shaw : Op. Cit., P. 95.
(٩٨) جران : المرجع السابق ، ص ٥٠ .
(٩٩) رينيلين : المرجع السابق ، ص ٥٣ .
(١٠٠) عبد الرحيم عبد الرحمن : الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٤ ، ص ١١ .

(١٠١) عجائب الآثار : ج ٢ ، ص : ٤١٣ .

(١٠٢) جران : المرجع السابق ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(١٠٣) على بركات : الجراك الاجتماعي في القرية المصرية في القرن الثامن عشر ، اسبابه ومظاهره ، المجلة الاجتماعية القومية ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٩١ ، ص ٣٢ - ٣٥ .

(١٠٤) عجائب الآثار : ج ٤ ، ص ٢٠٨ ، ٢١٠ .

Cuno, K.M. : The Pasha's Peasants, Cairo, . (١٠٥)
1994, P. 59.

(١٠٦) على بركات : الخطط التوفيقية - الجديدة ، بولاق ، ١٣٠٥ هـ . ج ٦١ : ص ٦٩ ، ج ١٤ ، ص ١٥ على سبيل المثال .

(١٠٧) على بركات : المرجع السابق ، ص ٣٩ ، عجائب الآثار : ج ٢ ، ص ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٨ .

Shaw : Op. Cit., P. 97. (١٠٨)

Ibid. (١٠٩)

(١١٠) على بركات : المرجع السابق ، ص ١٣ ، ١٤ .

(١١١) على بركات : المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(١١٢) هيلين ريفيلين : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(١١٣) جيرار : المرجع السابق : ص ٣٦ - ٤٠ .

(١١٤) محمد انيس : المرجع السابق ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

Sonini : Travels in Upper and Lower Egypt, (١١٥)
translated London, 1979, P. 677.

(١١٦) عجائب الآثار : ج ١ ، ص ٢٦ .

(١١٧) عجائب الآثار : ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(١١٨) ماطمة الحمزاوى : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى مصر فى عهد
الحلة الفرنسية ، رسالة ماجستير ، مقدمة لكلية الآداب ، جامعة القاهرة ؛
١٩٨٨ ، ص ٢٧٦ .

(١١٩) المرجع السابق : ص ٢٨٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ .

(١٢٠) المرجع السابق : ص ٢٩٧ - ٣٠٠ .

(١٢١) عجائب الآثار : ج ٣ ، ص ١١٢ .

(١٢٢) عجائب الآثار : ج ٤ ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

حيث يفكر الجبرى انه فى ذلك العام طلب بعض الملتزمين من الملاحين
مساعدتهم فى ضم الجببول بأجر . فكان الفلاح يقول « روح أنظر غيرى أنا مشغول
فى سفلى ، لنتم ايش بقالكم فى البلاد ، لقد انقضت أيامكم ، احنا سرنا ملاحين
الباشا » .



الفصل الثاني

في نقد ثقافة المجتمع

تكاد المصادر تجمع على أن الحضارة الإسلامية قد وصلت خلال العصر العثماني إلى مرحلة من التدهور لم يسبق لها مثيل ، وخاصة ذلك التدهور الذي أصاب الحياة الفكرية والدينية في الشرق العربي ، لكن الحقيقة أن هذا التدهور ليس مسئولية العثمانيين وحدهم ، ذلك لأنه يرجع إلى عوامل تسبق زمنيا وصول العثمانيين إلى المنطقة ، ويمكن أجمال هذه العوامل في عاملين رئيسين :

١ - الانهاك الحضاري الذي أصيبت به المنطقة العربية :

من جراء الأخطار التي تعرضت لها ، ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي ، وأبرزها الهجوم الصليبي (٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م - ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م) . والغزو المغولي ، الذي تعرض له الجناح الشرقي من الامبراطورية الإسلامية في القرن الثالث عشر الميلادي . حقيقة استطاعت المنطقة أن تصفى الخطر الصليبي خلال معارك استمرت قرنين من الزمان ، كما تمكنت من القضاء على الخطر المغولي في عين جالوت عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، على يد دولة المماليك في مصر ، إلا أن الثمن الذي دفعته المنطقة كان غاليا ، وخلال الحروب الصليبية دمرت مناطق واسعة من بلاد الشام والجزيرة وشمال العراق ، كما غزا الصليبيون مصر أكثر من مرة ، وخلال تلك الهجمات الشرسية دمرت مكتبة بنى عمار في طرابلس الشام ، وهي من أغنى المكتبات في تلك الفترة .

أما الخطر المغولى فكان أكثر تدميرا ، ففى هجومهم الصاعق على الجناح الشرقى للإمبراطورية الإسلامية ، دمر المغول بخارى ، وتركوها أنقاضا لا حياة فيها ، بعد أن كانت مدينة مزدهرة ، وفعلوا نفس الشيء فى كل البلاد التى دخلوها ، فقد دمروا المكتبات العشر ، التى كانت موجودة بمدينة مرو ، وكذلك فعلوا بمدينة سامرة (١) .

أما بغداد ، فقد خربت الخراب العظيم ، كما يذكر المؤرخ ابن تغرى بردى « وأحرقت كتب العلم التى كانت بها من سائر العلوم ، وأقام المغول من مكتبتها جسرا عبرت عليه خيولهم الى الغرب » (٢) ، بعد أن انزل التتار بعاصمة الخلافة مذبحة راح ضحيتها حوالى ثمانمائة ألف من السكان ، من بينهم الخليفة العباسى المستعصم نفسه ، ويقال أن مياه نهر دجلة تغير لونها لكثرة ما ألقى فيها من الكتب والورق (٣) ، وهكذا دمرت واحدة من أكبر ثلاث مكتبات فى العالم فى العصر الوسيط ، فالقلقشندى يذكر أن « أعظم خزائن الكتب فى الإسلام ثلاث خزائن ، أحداها خزانة الخلفاء العباسيين فى بغداد ، فكان بها من الكتب ما لا يحصى ، ولم تزل على ذلك الى أن داهمت التتار بغداد ، وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ، وذهبت خزانة الكتب فيما ذهب » (٤) ، وقد ظلت آثار الدمار الذى أحدثه التتار فى بغداد باقية لأجيال تالية ، ذلك لأنه لم يكن من الممكن تعويض ما أتلفه هؤلاء التتار من التراث الفكرى ، وهو فى ذلك الوقت ميراث أجيال (٥) .

وبينما جناح العالم الإسلامى الشرقى يواجه هذه الهجمات البربرية ، كان جناحه الغربى يتعرض لهجمات لا تقل ضراوة ، عندما راحت القوى المسيحية فى شبه جزيرة أيبيريا تكثف هجومها

للقضاء على المسلمين ، وتمكنت فى النهاية من الاستيلاء على آخر معقلهم فى الأندلس ، بسقوط غرناطة فى عام ١٤٩٢/١٤٩١ م ، وعندما تمكن المسيحيون من ذلك ، انقلبوا على التراث الاسلامى يدمرون ما تبقى من كتب ومخطوطات فى مختلف فروع المعرفة ، على الرغم من أن شروط تسليم غرناطة كانت تنص على السماح للمسلمين بالاحتفاظ بدينهم وأموالهم وكتبهم وثقافتهم(٦) .

وهكذا كان العالم الاسلامى على مشارف العصر الحديث قد دمر الجانب الأكبر من تراثه الفكرى ، بسبب الهجمات الخارجية ، كما أصيب بالانهك الحضارى من جراء الجهد المتصل فى مدافعة هذه الأخطار ، وفى حرب البقاء هذه كان العرب قد أسلموا القيادة على امتداد الأرض العربية والاسلامية لعناصر غير عربية، حديثة عهد بالاسلام ، وبعيدة الى حد كبير عن التراث العربى ، وهنا يكمن العامل الثانى فى أزمة الحضارة والفكر الاسلامى .

٢ - سيطرة الترك على السلطة فى الدولة الاسلامية :

ذلك أنه بينما كان الصراع على أشده ضد القوى المعادية ، والطامعة فى المنطقة العربية ، كانت السلطة الحقيقية قد انتقلت الى أيدي الترك فى الدولة الاسلامية ، وان كان قد بقى ظل من سلطة واهية فى أيدي الخلفاء العباسيين فى بغداد ، ونى البداية دخل الترك الى الدولة الاسلامية كأفراد وعبيد ، ثم أخذوا ينضمون للجيوش الاسلامية بعد تعليمهم وتدريبهم ، ثم ما لبثت مقاليد الأمور ان أصبحت فى أيديهم ، وقد عرف هذا العنصر باسم المماليك ، ثم تبعتهم هجرات لقبائل تركية تحت قيادتها ، ثم استقرت فى العالم الاسلامى ، أو على أطرافه ، ثم ما لبثت هذه القبائل أن اعتنقت الاسلام ، وأصبحت من خيرة العناصر المدافعة عنه .

وبمع غزو المغول للعالم الاسلامى فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) كانت سيطرة الترك على مقاليد الامور فى الدولة الاسلامية قد أصبحت حقيقة واقعة ، وفى أعقاب معركة عين جالوت كان الترك يسيطرون سيطرة شاملة على المنطقة ، من مصر حتى الهند شرقا ، والدولة الغزنوية فى الهند ، والاتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى ، والمماليك فى مصر ، كلهم ينتمون الى العنصر التركى ، وقد أعطت هذه السيطرة للحضارة والنظم الاسلامية طابعا معيناً ، كما عكست نفسها فى النتج التالية فى الأبنية الاجتماعية والفكرية للمجتمعات الاسلامية ، وقد زهد العنصر التركى الاسلام بدماء جديدة ، فدولة المماليك فى مصر استطاعت أن تهزم الخطر المغولى فى عين جالوت ، وأن تصفى الغزو الصليبي من بلاد الشام ، كما استطاع العثمانيون أن يسيروا بالاسلام مرحلة أخرى فى قلب أوروبا ، وأن يدافعوا عن دار الاسلام لفترة تزيد على ثلاثة قرون (٧) .

لكن الغربان الذين حققوا النصر على الجبهة العسكرية ، وأعطوا للأمة أعظم انتصاراتها ، ساءهموا — بسبب قربتهم الحضارية عن التراث العربى الاسلامى — فى نكسة الفكر والحضارة الاسلامية ، وساعدوا على سيادة تيار الجمود والتخلف على الجبهة الحضارية (٨) . فلم يكن هؤلاء أقل خطراً على التراث من المغول أنفسهم ، فالسلطان محمود الغزنوى استخرج كتب علوم الأوائل وعلم الكلام من مكتبة صاحب بن عباد ، التى كان قد وقفها على مدينة الري ، وأمر بإحراقها (٩) ، كما تسبب الأيوبيون فى تبيد واحدة من أكبر المكتبات الاسلامية فى العصر الوسيط ، وهى مكتبة القصر الفاطمى (١٠) ، عندما أوكل صلاح الدين للأمير بهاء الدين قراقوش — الخصى التركى — مسئولية التصرف فى القصور الفاطمية ، بعد أن قضى صلاح الدين على

الخلافة الفاطمية (١١٧١ م (٥٦٧ هـ) ، وكانت هذه المكتبة تضم كتباً في الشريعة والطب والهندسة والتاريخ والتفسير والمنطق ، وغير ذلك من الممارف ، وبعض كتبها كان يزيد على ستين مجلداً ، كما كان بها ١٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبرى ، وقد بيعت هذه المكتبة بالمزاد على مدى عشر سنوات ، وأشرف على بيعها الأمير بهاء الدين قراقوش ، ويذكر أبو شامة صاحب كتاب الروضتين ، أنها كانت « كالميراث مع أمراء الأيتام ، يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام » (١١) . كما وصف الأمير قراقوش بأنه « تركى ، لا خبرة له بالكتب ، ولا دراية له بأسفار الأدب » (١٢) .

هكذا كانت بداية الترك مع الحضارة الإسلامية ، وقد استمر التدهور فى العصر العثمانى ، لأن العثمانيين لم يكونوا أحسن حالا فى موقفهم من التراث العربى من العناصر التى سبقتهم ، فالعثمانيون قد احتفظوا بتركيتهم ، ومن ثم كانوا أكثر سلبية وبعدا عن التراث العربى من العناصر التركية التى سبقتهم فى حكم المنطقة العربية ، لأن تلك العناصر تعربت ، فالماليك حكموا من خلال قاعدة عريضة من العناصر العربية الوطنية ، كما ظلت اللغة العربية هى لغة الدولة ، ولغة التجارة والمعاملات ، بينما تغير الوضع فى العصر العثمانى ، حين أصبحت اللغة التركية هى اللغة الرسمية للدولة والحكم (١٣) .

وفى نفس الوقت جددت عوامل جديدة ، ساعدت على استمرار التدهور فى العصر العثمانى ، من ذلك تلك العزلة التى فرضت على المنطقة ، بسبب الحصار الاقتصادى ، الذى ضربه البرتغاليون على المنطقة مع بداية القرن السادس عشر ، فى أعقاب كشف الطريق التجارى الى الهند ، عبر رأس الرجاء الصالح (١٤٩٨ م) ، ومالبث هذا الحصار أن تحول الى حصار شامل ، شمل الفكر

والبحضارة ، بعد أن عمل العثمانيون من جانبهم على دعم هذا الاتجاه ، ناقضوا الملاحية في البحر الأحمر أمام السفن الأوربية ، خوفا من تهديد الأماكن الإسلامية المقدسة ، خصوصا بعد فشل حملتهم على الهند في عام ١٥٣٨ م ، وراحوا يعارضون أى محاولة لإعادة الطرق العالمية الى البحر الأحمر .

وفي الحقيقة ، فإن خوف العثمانيين من خطر الاستعمار الغربى المائل على حدود المشرق العربى ، منذ بداية القرن السادس عشر ، جعلهم يمعنون فى سياسة الحذر ، فأحاطوا الشرق الأدنى بسياج منيع من العزلة ، وحالوا بينه وبين العالم الخارجى ، ولم تكن عزلة المنطقة خلال العصر العثمانى الأول (من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر) ، سياسية واقتصادية فحسب ، بل تحولت الى عزلة حضارية أيضا ، فلم يصل الشرق العربى خلال تلك الفترة أى عنصر من العناصر المكونة للحضارة الغربية (١٤) ، التى كانت تسير بخطى سريعة فى طريق التقدم فيما بين القرن السادس عشر ونهاية القرن الثامن عشر ، بينما كانت البلاد الإسلامية قد استبدلت ببيوت الحكمة خوانق الدراويش ، وبالتصوف الفلسفى تكايا الطرق الصوفية (١٥) .

وكان مما ساعد على تأكيد عزلة العالم العربى خلال تلك الفترة ، شعور من الشك والريبة شاع فى البلاد الإسلامية ازاء الفرنجة ، ابان الحروب الصليبية ، وفى أعقابها .

فاذا أضفنا الى ذلك أن الدولة العثمانية كانت دولة محافظة ، لا ترحب بأى تجديد فى النظم القائمة أو فى الفكر ، فأصحاب الأفكار الجديدة من الولاة لا يحوزون رضا السلطة العثمانية ، بل ربما كانوا موضع سخطها (١٦) . كذلك كان المصلحون يلقون

الاضطهاد والتشريد ، وقصة ذلك الواعظ التركي ، الذى حضر الى القاهرة فى رمضان من عام ١١٢٣ هـ (١٧١١ م) شاهدة على ذلك ، فقد أخذ ذلك الواعظ يعظ الناس بجامع المؤيد بالقاهرة ، مستنكراً ما يمارسه أهل مصر من بدع عند أضرحة الاولياء ، مثل ايقاد الشموع والقناديل ، وتقبيل الأعتاب ، واقامة القباب وغير ذلك ، واعتبره كفراً يجب تركه ، وحمل ولاية الأمور فى القاهرة مسئولية القضاء عليه ، واجتمع عليه عدد كبير من الناس ، ويقول الجبرتى أن سلطات القاهرة قررت نفيه من المدينة ، وحركت جندھا للقضاء على العناصر التى التفت حوله ، فضربت بعضهم ونفت البعض الآخر ، بعد أن اعتبرتهم السلطات العثمانية متعصبين (١٣) .

وفى النهاية ، فان القلاقل والاضطرابات التى شهدتها الفترة الأخيرة من الحكم العثمانى ، بسبب فتن الجند ، والصراعات بين المماليك وغيرهم من القوى المحلية ، تسببت فى اتلاف كثير من الكتب والمكتبات ، وتسرب ما بقى منها الى خارج المنطقة ، فالجبرتى يذكر أن معظم كتب التاريخ التى كانت معروفة فى مصر قبل هذه ، أصبحت « أسماء على غير مسميات » ، ولم يبق منها « إلا بعض أجزاء مدشنة بقيت فى بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس ، مما تداولته أيدي الصحافيين (باعة الكتب فى ذلك الوقت) ، وباعها القومة والمباشرون ، ونقلت الى بلاد المغرب والسودان ، ثم ذهبت بقايا البقايا فى الثبن والحروب ، وأخذ الفرنسيين ما وجدوا الى بلادهم » (١٨) .

وعلى ذلك فان هذه العوامل قد أدت الى تحول التوقف الذى بدأت ملامحه تزحف على الفكر الاسلامى منذ القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) الى جمود ، ثم الى تراجع .

ذلك أنه عندما استقرت المذاهب الأربعة في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، أصبحت هي المصادر المقررة في الشريعة الإسلامية ، وأصبح كل خروج عنها بدعة ، وكان من نتيجة ذلك أن طرح باب الاجتهاد بالتدريج ، وشيئا فشيئا حل التقليد محل الاجتهاد والتجديد .

وقد بدأ هذا الاتجاه عندما خشى الفقهاء المتمسكون بحرفية الدين ، أن يؤدي توسيع باب الاجتهاد الى فتح الطريق للتأويلات الفردية (١٩) . ذلك لأن التقليد في البداية كان يعكس اتجاهها ، يهدف الى تضيق شقة الخلاف بين الفقهاء ، حول القضايا الجوهرية في الاسلام ، وادى ذلك الاتجاه تدريجا الى تضيق نطاق الاجتهاد ، على اعتبار أن أجيالا متعاقبة من الفقهاء يساندونهم الإجماع ، قد سدوا كل الثغرات في التشريع الاسلامي ، وأنه بالتالي لم تعد توجد ثغرات جوهرية ، تحتاج لمزيد من الاجتهاد ، ومن ثم أقفل باب الاجتهاد في الدين ، وأصبح على العلماء اللاحقين أن يتقبلوا أحكام الأئمة الأربعة طبقا للمذهب الذي يأخذون به ، وأطلق على هذا الاتجاه اسم التقليد ، وأصبح على الأجيال التالية من العلماء أن يتوخوا الدقة في الأخذ بالسوابق ، التي أسستها السلف ، فيما يتعلق بإصدار الأحكام ، وكانت النتيجة هي توقف التفكير الاسلامي ، وتفشى التقليد ، والجمود في علوم الشريعة ، وسائر العلوم الدينية ، ومالبث هذا الاتجاه أن زحف على العلوم العقلية أيضا (٢٠) .

والحقيقة أن الحكم الاستبدادي قد شجع هذه الاتجاهات المحافظة في الفكر الاسلامي ، فقد مال الخلفاء في العصور المتأخرة الى تقريب اتباع الفكر المحافظ ، وأقصوا عنهم المفكرين الأحرار ، خاصة حين باتت الحكومة في الدولة العباسية ذات طابع استبدادي ، فرسخت عقائد الدين متشحة بالتقاليد ، وقررت

حدودها ، واضطهدت أتباع الفكر الحر شر اضطهاد ، وما كاد يحل القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) ، حتى قضى على كل فكر مبتكر (٢١) . وكان ذلك يعنى انتصار المدرسة النقلية ، على المدرسة العقلية ، ومن ثم بدأت عمليات المطاردة للفكر العقلانى ، وللعناصر المطالبة بالتجديد ، فالمصادر تشير الى أن الفترة المتأخرة من العصر العباسى الثانى ، قد شهدت عمليات اضطهاد للفكر والمفكرين ، فقد أحرقت كتب ابن عبد السلام البغدادى ، فى أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، فى عهد الخليفة الناصر لدين الله ، لا لشيء ، إلا لأنه كان يرجع الى كتب الفلسفة ، كذلك أحرقت فى تلك الفترة بعض كتب الحسن بن الهيثم فى الفلك (٢٢) ، وفى القرن التالى سجن ابن تيمية فى دمشق حتى الموت ، عندما حاول الثورة على انحرافات الصوفيين فى الفكر والممارسة ، وكان وقوف علماء السنة من المذاهب الأربعة ، الى جانب السلطة ضد ابن تيمية ، يعنى أن علماء العصر قد قبلوا البدع التى أدخلها بعض المتصوفين على الإسلام ، وقبلوا التعايش معها ، ومن ثم تغلغلت أفكار الصوفية فى الحياة الدينية والاجتماعية فى الفترة التالية ، وقد بلغ الانشقاق بين علماء الدين وأصحاب الطرق الصوفية قمته فى القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد (الحادى عشر والثانى عشر للهجرة) (٢٣) .

وعلى ذلك ، فانه ما كاد يحل القرن الثامن عشر الميلادى ، حتى كانت الوحدانية قد ألبيت ظلالا من الخرافة وقشور الصوفية ، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء ، الذين يخرجون من مكان الى مكان ، حاملين فى أعناقهم التمايم والتعاويذ والسبحات ، موهمين الناس بالباطل والشبهات ، يرغبونهم فى الحج الى قبور الأولياء التماسا للشفاعة منهم (٢٤) .

برز هؤلاء كقادة للفكر ، كنتيجة لزحف التصوف على الحياة العقلية ، بعد أن انحط التصوف ، وتحول من فلسفة الى دروشة .

وهكذا انحط مستوى العلماء الفكري ، ليتدنى الى مستوى العامة (٢٥) ، ووقف الجهد العلمى عند الجمع والتصنيف والتدوين والاعداد والتهذيب والتنقيح ، وتميز العصر بالحفظ والتقليد للتراث ، والتراث غير العقلانى بالذات ، ولم تعد الاضافات نطاق الشروح والحواشى ، التى وضعت على المتون (٢٦) .

وقد زحف هذا الجمود والتخلف ، على نواحي الحياة المختلفة، لدرجة أن انشاء مطبعة حديثة فى استانبول عام ١١٢٤ هـ (١٧١٢م) احتاج الى فتوى من شيخ الاسلام ، وتطلب ذلك تدخل السلطان العثمانى شخصيا ، لاصدار مثل هذه الفتوى ، التى جاءت مشروطة بعدم طبع القرآن وكتب التفسير والحديث على هذه المطبعة ، لأنها كتب دينية ، ويخشى عليها من التحريف (٢٧) .

مظاهر نقد ثقافة المجتمع

فى تناوله للحياة الفكرية والثقافية فى مصر تعرض الجبرتى بالنقد لظاهرتين رئيسيتين **أولاهما** : تدهور الحياة الفكرية بشقيها من العلوم الدينية والعلوم العقلية ، **أما الظاهرة الثانية** : فهى الانحرافات التى ظهرت فى الحياة الدينية وممارسة العقيدة وهى انحرافات تناولها الجبرتى خلال حديثه عن الحركة الصوفية المتأخرة وما لحق بها من بدع وخرافات .

وأهمية ما كتبه الجبرتى فى هذا المجال أن المجتمع المصرى فى ذلك الوقت لم يكن يختلف كثيرا عن غيره من المجتمعات الاسلامية بسبب وحدة الفكر والثقافة الناتجة من وحدة الحضارة

الإسلامية ، ولأن العثمانيين حافظوا على الوحدة السياسية للمنطقة حتى نهاية القرن الثامن عشر .

وفيما يتعلق بالظاهرة الأولى وهى تدهور الحياة الفكرية نستطيع أن نستخلص مما كتبه الجبرتي حول هذا الموضوع أربعة أسباب ساهمت فى هذا التدهور : الأول سبب عام ذكره الجبرتي فى معرض حديثه عن أسباب تدهور علم التاريخ وهو كثرة الفتن والقلق فى عصره مما أدى الى اختفاء كثير من الكتب التى كانت معروفة من قبل كما سبق أن أشرنا (٢٨) .

السبب الثانى يتصل بنوعية العلماء خلال تلك الفترة وتكالب بعضهم على الدنيا ، يتضح ذلك مما كتبه الجبرتي من ترجمات لعلماء عصره ، فهو يقول مثلاً عند ترجمته لحياة الشيخ عبد الله الشرقاوى (ت ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م) « واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها » وهو يؤكد هذه الحقيقة مرة أخرى فيما أورده من شعر الشيخ حسن البدرى (٢٩) .

وتؤكد المصادر أن بعض العلماء كانت لهم أنشطة اقتصادية متنوعة مثل نظارة الوقف وحياسة الالتزامات والعمل بالتجارة وهى أنشطة شغلتهم عن متابعة العلم والبحث ، مما جعل الجبرتي يطلق عليهم اسم « مشايخ الوقت » (٣٠) .

أما السبب الثالث لتدهور الحياة الفكرية فهو يتعلق بظاهرة توريث الوظائف العلمية أى وراثة الابن لمنصب والده حتى لو لم تكن له قدراته العلمية وما يؤهله لذلك ، وهى ظاهرة تسببت للحياة العلمية من نظام طوائف الحرف حين كان الابن يرث حرفة أبيه ، ولأن التعليم فى ذلك الوقت انحدر الى مستوى الحرفة فقد أصبحت هذه الظاهرة معترفاً بها فى أوساط العلماء ، وإذا حدث

أن لم يكن في بيت العالم المتوفى من تعلم في الأزهر دفع العلماء
بواحد من آل بيته للتعلم والارتفاع الى مستوى العلماء (٣١) .

ومن ذلك انه لما توفى الشيخ أحمد الجوهري (ت ١٢١٥ هـ /
١٨٠٠ م) فرضوا على أخيه عبد الفتاح أن يخلفه ، ويقول الجبرتي
انه « لم يكن معنيا بالعلم ولم يلبس زى الفقهاء وكان يعانى التجارة
(أى يعمل بها) ويشارك ويضارب ويحاسب ويكتب ، فلما مات
أخوه الأكبر الشيخ أحمد وأمتنع أخوه الأصغر الشيخ محمد من
التصدر للاقراء فى محله اتفق الحال على تقدم المترجم حفاظا على
الناموس وبقاء لصورة العلم الموروث فعند ذلك تزيى بزى الفقهاء
ولبس التاج والفراجة الواسعة وأقبل على مطالعة العلم وخالط
أهله وصار يطالع ويذاكر وقرا دروس الحديث بالمشهد الحسينى
فى رمضان مع قلة بضاعته وذلك بمعونة الشيخ مصطفى بن الشيخ
محمد الفرماوى » (٣٢) .

أما السبب الأخير فهو موقف كبار العلماء الرسميين المناهض
لأصحاب الأفكار الجديدة المطالبة بالأصلاح ، فقد ذكر الجبرتي
عند حديثه عن الواعظ التركي الذى دعا الى ترك البدع والممارسات
الخاطئة فى العقيدة والأفكار السائدة حول كرامات الأولياء ، ذكر
الجبرتي أن كبار علماء الأزهر ممن يشغلون الوظائف الرسمية هم
الذين أفتوا ببطلان كلام ذلك الواعظ وحرضوا السلطة على طرده
وتشتيت أتباعه (٣٣) .

وقد عرض الجبرتي لكثير من مظاهر الجمود والتخلف الفكرى
من خلال عرضه لنماذج من علماء عصره خصوصا المتصوفة منهم ،
مستشهدا فى أكثر من موضع بشعر المعاصرين من أمثال الشيخ
حسن البدرى الحجازى الذى ترجم له الجبرتي ووصفه بأنه كان

ناقداً لأوضاع عصره (٣٤) ، وقد أرجع الجبرتي فساد الأخلاق العامة والتدهور العام الذي أصاب الحياة الفكرية في سائر البلاد إلى جهل هؤلاء العلماء الذين يتصدرون للفتوى والوعظ والذين لا يعرفون حتى مجرد التمييز بين الحلال والحرام (٣٥) . وقد ذكر أن أحد هؤلاء العلماء الذين دأبوا على الفتوى بغير علم قد طلق امرأة من زوجها الذي غاب عنها لفترة وزوجها من آخر على الرغم من أن الزوج كان قد ترك لها ما يكفيها ، فلما حضر الزوج الأول ووجد زوجته قد تزوجت من غيره قدم شكوى للأمير يوسف الكبير (ت ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م) الذي أمر بحبس ذلك العالم (٣٦) .

وقد أوضح الجبرتي إلى أي مدى تدهور مستوى علماء الدين خلال حديثه عن ذلك الواعظ التركي الذي رفض فكرة أن يكون للأولياء كرامات بعد وفاتهم فيقول الجبرتي أن بعض الناس « عندما سمعوا ذلك القول وذهبوا إلى العلماء بالأزهر وأخبروهم بقول ذلك الواعظ وكتبوا نمطوى وأجاب عليها الشيخ أحمد النفراوي والشيخ أحمد الخلفي بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت وأن إنكاره (الواعظ) على اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ لا يجوز ويجب على الحاكم زجره » (٣٧) .

ولكن ذلك لا يعني أن كل علماء العصر كانوا على هذا المستوى من التخلف فقد أورد الجبرتي نماذج أخرى مشرفة لبعض علماء العصر من هؤلاء الشيخ مرتضى الزبيدي صاحب موسوعة تاج العروس الذي كان موضع إعجاب الجبرتي (٣٨) .

لكن يفهم مما كتبه الجبرتي أن تخلف العلوم العقلية كان أكثر وضوحاً وقد عبر عن هذه الحقيقة في ذلك الحوار الذي أورده بين علماء الأزهر وأحمد باشا الذي عين والياً على مصر في عام

١١٦١ هـ (١٧٤٨ م) وكان من المهتمين بالعلوم الرياضية . فعند وصوله الى مصر حضرت جمهرة من علماء الأزهر على رأسهم الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر للترحيب به فسألهم الوالى عن العلوم الرياضية لكنهم احجموا عن الاجابة وفى جلسة تالية اجتمع الوالى بالشيخ الشبراوى وقال له « المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت فى غاية الشوق الى المجيء اليها فلما جئتها وجدتها كما قيل تسمع بالمعدي خير من أن تراه ، فقال الشيخ الشبراوى هى يامولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف فقال الوالى : وأين هى وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئاً وغاية تحصيلكم الفقه والمنقول والوسائل ونبذتهم المقاصد فقال نحن لسنا أعظم علمائها وانما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند ارباب الدولة والحكام وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية الا بقدر الحاجة الموصلة الى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب والغيار فقال له وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وفى أوقات الصوم والأهلة وغير ذلك فقال نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقين وهذه العلوم تحتاج الى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية كركة الطبيعة وحسن الوضع والرسم والتشكيل والأمور العطاردية وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء وأخلاق مجتمعة من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك (٣٩) .

ويذكر الجبرتى بعد ذلك أن الوالى سأل عن البعض الذى لديه علم بالعلوم العقلية فدلوه على والده الشيخ حسن الجبرتى .

تلك الصورة توضح الى أى حد تدهورت العلوم العقلية لكن لا يعنى ان التدهور فى الحياة العقلية كان شاملاً ، فالجبرتى

تحدث عن بعض العلماء الذين كانت لهم اهتمامات بالعلوم العقلية والرياضية مثل والده الشيخ حسن الجبرتي الذي كانت له اهتمامات واسعة في هذه العلوم (٤٠) .

ومن بين العلوم التي تدهورت في القرن الثامن عشر والتي أشار إليها الجبرتي علم التاريخ ، ويرجع الجبرتي أسباب تدهور هذا العلم الى عدم اهتمام أبناء عصره بدراسة التاريخ ونظرتهم الهابطة الى ذلك النوع من المعرفة ، فهو يقول « ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الانساني تعتنى بتدوينه سلفا عن سلف وخلفا من بعد خلف الى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه وعدوه من شغل البطالين وقالوا أساطير الأولين » ويستطرد الجبرتي فيقول « ولعمري أنهم المعذورون وبالأهم مشغولون ولا يرضون لأقلامهم المتعبة في مثل هذه المنقبة فان الزمان قد انعكست أحواله وانخرمت قواعده في الحساب فلا تضبط وقائعه في دغتر ولا كتاب واشغال الوقت في غير فائدة ضياع وما مضى ليس له استرجاع ! لا أن يكون مثل الحقير منزويا في زوايا الخمول والاهمال » (٤١) .

أما الظاهرة الأخرى التي تناولها الجبرتي بالنقد في هذا المجال فهي ظاهرة الانحراف في الطرق الصوفية ، وقد استهل الجبرتي هذه القضية موضحا أن الخطر الذي تهدد الحياة الفكرية والدينية على عهده هو التخلف والجمود الذي حمل لواءه أدعياء التصوف الذين تظاهروا بالتصوف واتخذوه مبررا للهرب من الحياة الجادة ووسيلة للتفكير بالعامية فكثرت الأدعياء الذين لبسوا مسوح الصوفية ، ثم اندس هذا الفريق المنحرف بين الناس يروجون الأباطيل ويستخدمون مصطلحات يعجز الرجل العادي عن فهمها بدعوى انها أسرار لا يرقى إليها الا الخاصة ولا دخل للعقل في

أدراكها ، وحرص الجبرتي على أن يفرق في الصورة التي رسمها بين أولئك المنحرفين والزاهدين الحقيقيين وذلك على نحو ما شهده بنفسه من أعمال كل من الفريقين ، وجاءت الصورة التي رسمها للعناصر المنحرفة دقيقة التفاصيل فأسهب في وصف مواكب أولئك المنحرفين من دعاة التصوف وقدرتهم على اجتذاب الناس من شتى الطبقات رجالا ونساء وأطفالا (٤٢) .

ويذكر الجبرتي أن بعضهم كان يسير عريانا في الطرقات يتبعهم الأطفال فهو يقول « ان السيد على البكري (ت ١٢٠٧ هـ / ١٧٨٢ م) كان في بداية حياته يمشي في الطرقات عريانا ويخلط في كلامه وبيده نبوت طويل في أغلب أوقاته . وكان يحلق لحيته وللناس به اعتقاد عظيم وينصتون الى تخيلاته ويوجهون الفاظه ويؤولونها على حسب أغراضهم ومقتضيات أحوالهم ووقائعهم وكان له أخ من مساتير الناس فحجر عليه ومنعه من الخروج والبسه ثيابا ورغب الناس في زيارته وذكر مكاشفاته وخوارق كراماته فأقبل الناس عليه من كل ناحية وترددوا لزيارته من كل جهة وأتوا اليه بالهدايا والنذور وجروا على عوائدهم بالتقليد وازدحم عليه الخلائق وخصوصا النساء فراج بذلك أمر أخيه واتسعت دنياه ونصبه شبكة لصيده ومنعه من حلق لحيته فنبئت وعظمت وسمن بدنه وعظم جسمه من كثرة الأكل والراحة وقد كان قبل ذلك عريانا شقيانا يبيت غالب لياليه بالجوع طاويا . . ويقول أنه بعد موته « أقام الناس على قبره مقصورة واجتمعوا عند مدفنه في ليال وميعادات وقراء ومنشدين وتزدحم عنده أصناف الخلائق ويختلط النساء بالرجال » (٤٣) .

وقد ذكر الجبرتي نموذجا آخر صارخا لهذا النوع من المتصوفة فيما رواه عن الشيخ صادومة الذي قال عنه الجبرتي أنه « كان له

باع طويل فى الروحانيات وتحريك الجمادات والسيميات ويكلم الجن ويخاطبهم مشافهة ويظهرهم للعيان » ويقول « كما أخبرنى من شاهده وللناس اختلاف فى شأنه » .

وأوضح الجبرتى خطورة هؤلاء الناس وذلك لأنهم استطاعوا ان يجتذبوا اليهم نفرا من كبار الفقهاء جمعتهم بهم مصلحة مشتركة وكان ذلك النفر من الفقهاء يروج لمثل هؤلاء المتصوفة وكرامتهم ، فقد ذكر الجبرتى أن الشيخ حسن الكفراوى الذى تولى منصب افتاء الشافعية كان من أتباع الشيخ صادومة « وله به التثام وعشرة ومحبة أكيدة واعتقاد عظيم ويخبر عنه أنه من الأولياء وأرباب الأحوال والمكاشفات بل يقول أنه هو الفرد الجامع ونوه بشأنه عند الأمراء خصوصا محمد بك أبو الذهب فراج حال كل منهما بالآخر » . ويقول الجبرتى « أنه حدث أن اختلى الأمير يوسف الكبير بمحظيته فرأى على سوءتها كتابة فسألها عن ذلك وتهدها بالقتل فأخبرته ان المرأة الفلانية ذهبت بها الى هذا الشيخ وهو الذى كتب! لها ذلك ليحببها الى سيدها فنزل فى الحال وأرسل فقبض على الشيخ صادومة وأمر بقتله والقائه فى البحر ففعلوا به ذلك » (٤٤) .

وأمام هذه الدرجة من التدهور كان طبيعيا أن يظهر الكثير من ادعياء التصوف ، فالجبرتى يذكر فى حوادث شهر جمادى الثانية عام ١١١٠ هـ انه « ظهر رجل من أهل الفيوم يدعى بالعلمى قدم الى القاهرة وأقام بظهر القهوه المواجهة لسبيل المؤمن فاجتمع عليه كثير من العوام وادعوا فيه الولاية وأقبلت عليه الناس من كل جهة واختلط النساء بالرجال وكان يحصل بسببه مناسد عظيمة فقامت عليه العساكر وقتلوه » (٤٥) .

وأصبحت هذه الظاهرة تتكرر فالجبرتي يذكر في حوادث شهر جمادى الثانية عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) انه ظهر « رجل بناحية بنها العسل يدعى الشيخ سليمان فأقام مدة في عشه بالفيط واعتقد فيه الناس الولاية والسلوك والجذب فاجتمع اليه الكثير من أهل القرى وأكثرهم الأحداث ونصبوا له خيمة وأقبلت عليه أهل القرى بالندور والهدايا وصار يكتب الى النواحي أوراقا يستدعى منهم القمح والدقيق ويرسلها مع المربين . . وصار له عدة اخصاص واجتمع لديه من المردان نحو المائة والستين أمرد وغالبهم اولاد مشايخ البلاد . . وعمل للمردان عقودا من الخرز الملون في اعناقهم ولبعضهم اقراطا في آذانهم « (٤٦) .

والحركة الصوفية من هذا المنظور أصبحت في بعض جوانبها ظاهرة اجتماعية واقتصادية أكثر منها ظاهرة دينية أو فلسفية ، وأصبحت تتصل بالحياة الاقتصادية والسياسية ، فهي وسيلة للهرب من ظلم الحكام وطفيانهم ، وهرب الفلاحين من ظلم الملتزمين وجباة الضرائب ، ثم هي وسيلة للتغلب على مشكلة الجوع في سنوات القحط (٤٧) . لقد ألقت الحركة الصوفية بصورتها هذه ظلا كثيفا على الحياة الدينية والفكرية ، فظاهرة الأضرحة والموالد وما كان يحدث فيها من بدع وانحرافات قد ارتبطت الى حد كبير بهذا النوع من الصوفية المتأخرة ، وقد ربط الجبرتي بين الظاهرتين بشكل واضح . فهو يذكر عند ترجمته لحياة الشيخ عبد الوهاب ابن عبد السلام أحد مشايخ الطرق الصوفية الذي توفي عام ١١٧٢ هـ (١٧٥٨ م) انه عقب وفاته حدث سيل عظيم هدم قبره وبعض القبور المجاورة « فاجتمع أولاده ومريدوه وبنوا له قبرا في العلوة وعملوا له مقصورة ومقاما من داخلها وعليه عمامة كبيرة وصيرود بزارا عظيما يقصد للزيارة ويختلط به الرجال والنساء . . ثم انهم ابتدعوا له موسما وعيدا في كل سنة يدعون اليه الناس

من البلاد القبلية والبحرية فينصبون خياما كثيرة ومطابخ وقهاوى
ويجتمع العالم الأكبر من اخلاط الناس وخواصهم وعوامهم وغلاحي
الأرياف وأرياب الملاهى والملاعب والغوازي البغايا والقرادين
والحواة . ويستطرد الجبرتي فيصور ما كان يحدث فى هذه
الموالد من انحرافات وخروج عن مبادئ الدين والأخلاق من جراء
وجود مثل هذا الحشد من أخلاط الناس فيقول « فيملأون الصحراء
والبستان فيطأون القبور ويوقدون عليها النيران ويصبون عليها
القلذورات ويبولون ويتغوطون ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون
ويضربون الطبول والزمر ليلًا ونهارًا ويستمر ذلك نحو عشرة
أيام وأكثر » (٤٨) .

ويصور الجبرتي فى موضع آخر كيف نشأ مولد الحسين فى
القاهرة فيقول ان الذى ابتدعه السيد بدوى بن فتيح مباشر وقف
المشهد الحسينى بعد أن أصيب بمرض فنذر أن يقيم هذا المولد لو
شفاه الله فلما تحسنت صحته بعض الشيء شرع فى إقامة هذا
المولد « وأوقد فى المسجد والقبة قناديل وبعض الشموع ورتب
فقهاء يقرأون القرآن بالنهار مدارس وأخرين يقرأون بالليل دلائل
الخيرات للجزولى ثم زاد الحال وانضم اليهم كثير من أهل البدع
كجماعة العنقبي والسمان والعربى والعيسوية » . ويصف الجبرتي
أوضاع المسجد الحسينى وانتهاك حرمة فى ظروف هذا المولد
فيقول مستطردا : « هذا مع ما ينضم الى ذلك من جمع العوام
وتحلقهم (جلوسهم فى شكل حلقات) بالمسجد للحديث والهديان
وكثرة اللفظ والحكايات والأضاحيك والتلفت الى حسان الغلمان
الذين يحضرون للتفرج والسعى خلفهم والاعتنان بهم ورمى مشور
اللب والمكسرات والمأكولات فى المسجد وطواف الباعة بالمأكولات
على الناس فيه وسقاء الماء نقيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه
القاذورات والعنوش ملتحقا بالأسواق المتهنة ولا حول ولا قوة
الا بالله » (٤٩) .

ويستطرد الجبرتي فيصور مواكب الطرق الصوفية في مثل هذه الموالد وماتضمنه من اخلاط الناس من خلال حديثه عن مولد الحسين في شعبان عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) فيقول : « ثم زاد الحال على ذلك بقدم جماعة الاثاير كان لكل طريقة صوفية اشارة معينة) من الحارات القريبة والبعيدة وبين ايديهم مناوِر القناديل والجوامع العظيمة التي تحملها الرجال والشموع والطبول والزمور ويتكدهون بكلام محرف يظنون انه ذكر وتوسلات يثابون عليها وينسبون من يلومهم او يعترضهم الى الاعتزال والخروج والزندقة وغالبهم السوقة وأهل الحرف السافلة » (٥٠) . وينبه الجبرتي الى ان الفرنسيين قد شجعوا مثل هذه البدع حتى ينصرف الناس عن التفكير في الاوضاع السياسية والاقتصادية الناجمة عن الاحتلال الفرنسي وحصار الاسطول الانجليزى للشواطىء المصرية فيقول « وانقضى شهر شعبان وحوادثه فمنها أن أهل مصر جروا على عاداتهم في بدعهم التي كانوا عليها وانكمشوا عن بعضها واحتشموها خوفا من الفرنسيين فلما تدرجوا فيها واطلق لهم الفرنسية القيد ورخصوا لهم وسسايروهم رجعوا اليها وانهمكوا في عمل موالد الاضرحة التي يرون فرضيتها وانها قريبة تنجيهم بزعمهم من المهالك وتقربهم الى الله زلفى في المسالك فرمحوها في غلاتهم مع ما هم فيه من الأسر وكساد غالب البضائع وغلوها وانقطاع الأخبار ومنع الجالب (الوارد) ووقوف الانجليز في البحر وشدة حجزهم على الصادر والوارد حتى غلت أسعار جميع الأصناف المجاوبة من البحر الرومى وانقطع أثر كثير من أرباب الصنائع التي كسدت » (٥١) .

أما الشيخ عبد الله الشرقاوى الذى كان شيخا للأزهر فيقول :
انجبرتي أن أهله ابتدعوا له مولدا عقت وفاته (١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م) .

« وكتبوا بذلك فرمانا من الباشا ونادى به تابع الشرطة بأسواق المدينة على الناس بالاجتماع والحضور لذلك المولد وكتبوا أوراقا ورسائل للأعيان وأصحاب المظاهر وغيرهم بالحضور وذبحوا ذبائح واحضروا طبّاخين وغراشين ومدوا أسسمطة بها أنواع الأطعمة والحلاوات والمحمرات والخشافات إن حضر من الفقهاء والمشايع والأعيان وأرباب الاشايير والبدع ونصبوا قبالة تلك القبة صواري علقوا بها قناديل وبيارق وشراريب حمراء وصفراء يلوحها الريح واجتمع حول ذلك من غوغاء الناس وعملوا قهاوى وبياعى الحلو والمخللات والترمس المملح والفول المقلّى ودهسوا ما بتلك البقعة من قبور الأموات وأوقدوا النيران وصبوا عليها القاذورات مع ما يلحقهم من البول والغائط » (٥٢) .

ان رؤية الجبرتي للطرق الصوفية وما وصلت اليه خلال عصره تظهر من خلال وصفه لها بالطرق الشيطانية عند حديثه عن محاولة عثمان أغا إعادة بناء مشهد زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين فى عام ١٢٥٥ هـ (١٨١٠ م) فهو يقول : « ومن الحوادث البدعية من هذا القبيل ان عثمان أغا المتولى أغات مستحفظان سولت له نفسه عمارة مشهد الرأس وهو رأس زيد ابن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبى طالب رضى الله عنهم ويعرف هذا المشهد عند العامة بزين العابدين وبذلك اشتهر فلما كانت الحوادث ومجىء الفرنسيين أهملوا ذلك وتخرب المشهد وأهملت عليه الأتربة فاجتهد عثمان أغا المذكور فى تعمير ذلك وزخرفته وبيضنه وعمل به سترا وتاجا ليوضعا على المقام وأرسل فنادى على أهل الطرق الشيطانية المعروفة بالاشايير وهم السوقة ، وأرباب الحرف المرذولة الذين ينسبون أنفسهم لأرباب الضرائح المشهورين كالأحمدية والرفاعية والقادرية والبراهمية ونحو ذلك . . ثم انهم اجتمعوا فى يوم الأحد خامس عشر رينه

بأنواع من الطبول والزمامر والبيارق والأعلام .. حتى ملأوا
النواحي والأسواق .. ويصحبهم الكثير من الفقهاء والمتعممين
والأغا المذكور راكب معهم .. « (٥٣) » .

وقد أوضح الجبرتي أن أخطر ما فى هذه الظواهر المرضية
أنها لم تكن موضع استنكار علماء عصره بل على العكس من ذلك
كانت موضع رضاهم ومشاركتهم فقد كان يحضر هذه الموالد الكثير
من العلماء والفقهاء ويقتدى بهم فى ذلك الأمراء وعلية القوم ..
ففى حديثه عن مولد الشيخ عبد الوهاب بن عبد السلام — الذى
سبق أن اشرنا اليه — يقول الجبرتي « .. ويجتمع لذلك أيضا
الفقهاء والعلماء وينصبون لهم خياما أيضا ويقتدى بهم الأكابر من
الأمراء والتجار والعامّة من غير انكار بل يعتقدون أن ذلك قرينة
وعبادة ولو لم يكن كذلك لأنكره العلماء فضلا عن كونهم يفعلونه
فالله يتولى هدايا أجمعين » (٥٤) .

وقد أورد الجبرتي أبياتا عديدة من شعر الشيخ حسن البدرى
(ت ١١٣٤ هـ / ١٧٢١ م) ينتقد فيها مثل هذه الظواهر (٥٥) .

وفى نقده للمجتمع انتقد الجبرتي العدل على الطريقة العثمانية
وذلك على — ما نسميه اليوم حيثيات الحكم فى وقائع قضائية
سليمان الحلبي قائل القائد الفرنسى كليبر فى ١٤ يونيو ١٨٠٠
ويقول الجبرتي أنه رأى تدوين الواقعة وكيفية الحكم فيها لما فيها
من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل
ولا يتدينون بدين وحول حيثيات القضية يقول الجبرتي « وقبضوا
— يقصد القاتل — وقرروه ولم يعجلوا بقتله أو قتل من أخبر عنهم
بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضخة
بدم سارى عسكريهم وأميرهم بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا
القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة،

ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على أنفرادهم ومجتمعين
ونفذوا الحكم بما اقتضاه التحكيم . . بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من
أفعال أوباش العسكر الذين يدعون الاسلام ويزعمون أنهم مجاهدون
وقتلهم الأنفس وتجروهم على هدم البنية الانسانية لجرد شهوتهم
الحيوانية . . « (٥٦) » .

وفى موضع آخر ينتقد الجبرتي العقلية الشرقية ويعترف
بعجزها عن استيعاب علوم العصر وذلك تعليقا على ما شاهده
من تجارب فى الكيمياء فى المعهد الذى أقامه الفرنسيون فى حارة
النصرية حيث يقول : « . . ولهم فيها أمور وأحوال وتراكيب قريبة
ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا » (٥٧) .

هذا الاتجاه الناقد للمجتمع وثقافته يمثل جزءا من صحوة
ثقافية يمكن أن نجد لها مجموعة أسباب على النحو التالى :

١ - المجتمع المصرى فى العصر العثمانى قد احتفظ بالكثير
من خصائصه التى كانت قائمة فى العصر السابق عليه وذلك
بسبب سياسة الدولة العثمانية القائمة على الإبقاء على الأبنية
الاجتماعية والاقتصادية كما تركت المؤسسات التعليمية تعمل بعيدا
عن الدولة وبالتالي كانت أقل تأثرا بالتدهور السياسى الذى عانت
منه البلاد . وعلى هذا فقد ظل المجتمع المصرى يحتفظ بقدر من
التقاليد العلمية والاخلاقية التى عرفتھا المجتمعات الاسلامية فى
العصور الوسطى ومنها التفانى فى طلب العلم والاغتراب من أجله
واحترام العلماء (٥٨) .

٢ - الدور الذى لعبه كبار العلماء فى تنشيط الحركة
الفكرية فالجبرتي يتحدث عن نشاط فكرى واضح وحلقات دراسية
كان ينظمها كبار العلماء لطلابهم من أمثال الشيخ مرتضى الزبيدى

والشيخ حسن الجبرتي ، ويشير الجبرتي الى ان هذه الحلقات الدراسية كانت تعج بالطلاب والعلماء ففي ترجمته لحياة أستاذه الزبيدي ذكر الجبرتي جوانب من النشاط العلمي الذي كان يمارسه الزبيدي وطريقته في تعليم طلابه وفي هذا المجال يقول الجبرتي « ولم يزل المترجم يخدم العلم ويرقى في درج المعالي ويحرص على جمع الفنون التي أغفلها المتأخرون كعلم الأنساب والأسانيد وتخاريج الأحاديث واتصال طرائق المحدثين المتأخرين بالمتقدمين وألف في ذلك كتباً ورسائل ومنظومات وأراجيز » .

ويقول الجبرتي ان الشيخ الزبيدي انتقل بعد ذلك من مرحلة الحلقات الدراسية الى لقاء الدروس العامة على المتخصصين وغير المتخصصين وانه وسع دائرة نشاطه حيث أصبح يلقي دروساً أخرى في مسجد الحنفى الى جانب مسجد شيخون (٥٩) .

وفي ترجمته لحياة والده أوضح عبد الرحمن الجبرتي كيف كانت تسير علاقة كبار العلماء بطلابهم . وكيف ان بعض الطلاب كان يداوم على طلب العلم أكثر من عشرين عاماً يكون خلالها ضيفاً على أستاذه وان بعض العلماء كانوا يلزمون والده كل الوقت .

٣ — كما يؤكد الجبرتي أن بعض العلماء من أمثال الشيخ على العدوى عندما كان يواجه من طلابه بأسئلة وقضايا لا يستطيع الانتاء فيها كان يوقف درسه ويستسمح طلابه في أن يسأل من هو أعلم منه بهذا الموضوع ، ثم يعود اليهم بالرأى الصحيح بعد أن يستشير أستاذه (٦٠) . وهي صورة مشرقة لعلماء تلك الفترة واستكمالاً لصورة الحياة العلمية خلال تلك الفترة أشار الجبرتي الى أن بعض كبار العلماء كانت لديهم مكتبات خاصة مثل أستاذه الزبيدي ووالده ، وكانت تحوى كتباً في سائر العلوم وكان

أستخدامها متاحا للطلاب مما أدى الى تلف بعض الكتب أو ضياعها (٦١) .

{ — الدور الذى لعبه كبار التجار فى تنشيط الحركة الفكرية من أمثال أحمد بن محمد الشرايبي (توفى حوالى ١١٧٣ هـ / ١٧٥٩م) الذى كان لدى أسرته مكتبة مفتوحة لطلاب العلم للاطلاع أو الاعارة الخارجية ، وما يفقد من الكتب أو يتلف كان يجدد وكانت المكتبة تحوى كتباً فى مختلف العلوم (٦٢) .

ومن ثم أصبح الباحثون يتحدثون عن صحوة ثقافية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر أو ما يسعىه الباحث الأمريكى بيتر جران بالكلاسيكية الجديدة ، ويقول أنها جاءت لاحقة للتحويلات الاقتصادية والاجتماعية التى شهدها البلاد فى ذلك الوقت ، ويقول ان تحليل الانتاج الفكرى للنصف الثانى من القرن الثامن عشر يتركز فى المجالات القريبة من دراسات الحديث ، مثل التاريخ وعلوم فقه اللغة المقارن ، حيث حققت هذه الدراسات قدرا من التقدم ، تميز بنشر النصوص ومحاكاة النماذج الكلاسيكية، التى ترجع الى عهد ملوك الطوائف فى الأندلس ، ولعب فيها قطاع التجارة دورا واضحا وحيويا ، ويقول بيتر جران ان المرحلة التالية من هذا التطور ، شهدت الاهتمام بعلوم الكلام والجدل والمنطق والعلوم الطبيعية ، وقد حققت هذه العلوم صحوة محلية ، كما أنها سارت فى طريق الاندماج فى اتجاهات علمية أوسع ، كما حدث فى أوروبا ، خصوصا البلاد الواقعة على البحر المتوسط (٦٣) .

ودراسة التطور الثقافى فى مصر خلال تلك الفترة ، قد تشف عن حقيقة مهمة ، هى أن عملية التطور واعادة الانتاج ، والاضافة فى مجال الفكر والثقافة اعتمدت الى حد كبير على عملية

التفاعل بين المراكز الثقافية العديدة ، التى كانت تحفل بها
الامبراطورية العثمانية ، خاصة دمشق واستانبول ، بالإضافة الى
القاهرة ، حيث كان الدارسون يرحلون من مكان الى آخر طلبا
للعلم والحج والتجارة ، كما كانت دراستهم لا تنقطع فى كل مكان
يصلون اليه ، ويمثل الشيخ مرتضى الزبيدى نموذجا لهذه المرحلة
(١١٤٥ — ١٢٠٥ هـ / ١٧٣٢ — ١٧٩٠ م) ، فقد ارتحل من زبيد
فى اليمن الى مكة المكرمة ، حتى انتهى به المطاف الى القاهرة ،
التى أقام بها حتى مات (٦٤) .

وقصة كتابة « تراجم القرن الثانى عشر الهجرى » ، تؤكد
وحدة المراكز الثقافية فى ذلك الوقت ، ففكرة هذه التراجم نشأت
عند الشيخ المرادى مفتى دمشق الذى طلب مساعدة الشيخ الزبيدى
فى انجازها ، ورأى الزبيدى الاستعانة بتلميذه الجبرتى فى اعداد
تراجم المصريين .

وبعيدا عن اجتهادات بيقر جران ، سوف نلاحظ وجود اتجاه
ناقد لما وصلت اليه الأوضاع الفكرية والممارسات الدينية ، التى
كان يلجأ اليها البعض ، ويرجع هذا الاتجاه الى بدايات القرن
الثامن عشر ، ويمثله بعض الكتاب والشعراء ورجال الدين
المستنيرين ، من أمثال الشيخ حسن بدر الحجازى (ت ١١٣٤ هـ /
١٧٢١ م) ، الذى كتب عددا من القصائد فى نقد الممارسات
الدينية ، وأوضاع المتصوفة ، وكذلك علماء الأزهر ، وفى واحدة
منها يقول :

ليتنا لم نعش الى أن رأينا

كل ذى جنة لدى الناس قطبا

ثم يقول فى قصيدة أخرى :

احذروا أولى التسبيح والسبحة

والصوف والعكاز والشملة

وفى قصيدة ثالثة ، ينتقد علماء الأزهر بقوله :

الجامع الأزهر ابتلاه رب العلاء والوجود

بكل فظ قحف وطرف عليك بالبشر لا وجود

قطعة صخر ليس فيه إلا الثقل واليبس والجهود(٦٥)

كذلك نجد صدى لهذا الاتجاه عند ذلك الواعظ الذى دعا فى رمضان من عام ١١٢٣ هـ (١٧١١ م) ، بمجد المؤيد بالقاهرة ، الى ترك البدع ، وانكر كرامة الأولياء بعد موتهم ، وما يقال عن اطلاعهم على اللوح المحفوظ وطلب مناظرة علماء الأزهر فيما يقول ، بعد أن رفض بعضهم مثل هذه الأفكار ، ويبدو أن أفكار وآراء هذا الواعظ قد أزعجت سلطات القاهرة ، وقوبلت بالرفض من قطاع العلماء المحافظين. من علماء الأزهر ، بينما لقيت قبولا من بعض جماهير القاهرة ، الأمر الذى دعا سلطات القاهرة للمقبض عليه ، ونفيه خارج القاهرة ومطاردة العناصر التى التفت حوله ، حتى لا تحدث فتنة ، حسب رواية الجبرتى(٦٦) .

وعلى هذا فموقف الجبرتى الناقد لهذه الأوضاع ، يمثل جزءا من تلك الاتجاه الناقد للحياة الثقافية فى بعض جوانبها المتردية ، ويلاحظ أن هذا الاتجاه كان يزعج السلطة وأصحاب الاتجاهات المحافظة من علماء الأزهر ، عندما يصبح موضع حوار علنى يكون العامة طرفا فيه .

ويفهم مما كتبه الجبرتى من نقد أنه كان يتطلع لنوع من التغيير . ويصبح السؤال ، فى أى اتجاه كان الجبرتى يرى ذلك التغيير ؟ .

أن أعجاب الجبرتي بيفض جوانب التقدم المأدى فى الحضارة الغربية التى شاهدها خلال وجود الفرنسيين فى مصر قد أغرى لويس عوض بالقول بأن الجبرتي كان من واضعى أسس الفكر الحديث مع الشيخ حسن العطار والشيخ الخشاب(٦٧) .

لكن الحقيقة قد تبدو مختلفة ، اذا ما تعرفنا على موقف الجبرتي من التغيرات التى صاحبت وجود الفرنسيين فيما يتعلق بوضع المرأة ، كذلك ما سجله الجبرتي من أخبار وآراء حول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتحركات آل سعود فى جزيرة العرب بعد قيام دولتهم .

ففيما يتعلق بوضع المرأة فى العهد الفرنسى يرفض الجبرتي بشدة مظاهر الخروج عن التقاليد الاسلامية المستقرة فى علاقة الرجل بالمرأة . والجبرتي يتناول هذه الظاهرة بامتعاض شديد فى أكثر من موضع فهو يقول فى أحداث شهر ذى الحجة عام ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) « .. ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء . وهو انه لما حضر الفرنسيين ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات النقائات والمناديل الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى المزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسقنهن سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهن وحرافيش العامة فمالت اليهن نفوس أهل الأهواء والنساء الفواحش»(٦٨) .

ثم يقول الجبرتي فى موضع آخر « انه لما أوفى النيل أذرعه ودخل الخليج وجرت فيه السفن وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيين ومصاحبتهم لهم فى المراكب والرقص والغناء والشرب فى الليل والنهار .. »(٦٩) .

ثم يعرض الجبرتي لنهاية بعض النسوة اللاتي أنسقن وراء
الفرنسيين ومنهن زينب ابنة الشيخ البكري عندما عاد العثمانيون
الى مصر (٧٠) .

أن الموقف الفكرى للجبرتي يظهر بشكل أوضح اذا ما
استعرضنا الأخبار والآراء التى سجلها فى عجائب الآثار عن دعوة
الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتحركات آل سعود فى شبه جزيرة
العرب فى مواجهة أشراف مكة ثم فى مواجهة قوات محمد على التى
زحفت على جزيرة العرب ابتداء من عام ١٨١١ .

هوامش الفصل الثانى

- (١) د . محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الاسلام ، مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م . ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
- (٢) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ١٩٣٨/١٩٣٧ ، ج ٧ ، ص ٥١ .
- (٣) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ج ٢ ، ص ١١١٩ ، محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ج ١ ، ص ٣٢٣ .
- (٤) القلقشندي : صبح الامتى ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ٤٦٦ .
- (٥) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصر الايوبى والملوكى ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٣١٥ .
- (٦) كرد على : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .
- (٧) Islam and the Arab World : edited by Bernard Lewis, London, 1976, P. 16.
- (٨) د . محمد مہارة : المرجع السابق ، ص ١٤ .
- (٩) د . محمد ماهر حمادة : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .
- (١٠) القلقشندي : ج ١ ، ص ٤٦٧ .
- (١١) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، القاهرة ، ١٢٨٧ هـ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .
- (١٢) المرجع السابق : ص ٢٦٨ .
- (١٣) Islam and the Arab World : P. 16.
- (١٤) د . محمد انيس : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .
- (١٥) محمد مہارة : المرجع السابق ، ص ١٣ .

- (١٦) د . محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ١٤٠ ، ١٤٢ .
- (١٧) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٧ هـ ، ج ١ ، ص ٤٨ ، ٤٩ .
- (١٨) - عجائب الآثار : ج ١ ، ص ٦ .
- (١٩) Gibb, H.A.R. : Modern Trends in Islam, New York, 1972, P. 114.
- (٢٠) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : حركة التجديد الإسلامي في العالم العربي الحديث ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ١٢ .
- (٢١) المرجع السابق : ص ١٢ ، ١٣ .
- (٢٢) د . محمد ماهر حمادة : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .
- (٢٣) Gibb : Op.-Cit, P. 24.
- (٢٤) لوثرروب ستودار : حاضر العالم الإسلامي ، مترجم ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .
- (٢٥) أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة : القاهرة ، ١٩٧١ ، مقال للدكتور محمد أنيس ، ص ١١١٠ ، ١١١١ .
- (٢٦) محمد عمارة ، المرجع السابق ، ص ١٢ .
- (٢٧) عبد المتعال الصعيدي ، المجددون في الإسلام من القرن الأول الهجري الى القرن الرابع عشر ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ .
- (٢٨) عجائب الآثار ج ١ ، ص ٦ .
- (٢٩) عجائب الآثار ج ٤ ، ص ١٦١ ، ج ١ ص ٧٩ ، ٨١ .
- (٣٠) عبد الرحمن الجبرتي ، دراسات وبحوث ، ص ١٤٨ .
- (٣١) المرجع السابق ، ص ٤٠٢ .
- (٣٢) عجائب الآثار ج ٣ ، ص ١٦٦ .
- (٣٣) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٤٨ ، ٤٩ .
- (٣٤) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٨١ .
- (٣٥) عبد الرحمن الجبرتي ، دراسات وبحوث ، ص ٨٠ .
- (٣٦) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ١٨ .
- (٣٧) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٤٨ .
- (٣٨) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٩٦ - ٢١٠ .
- (٣٩) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

- (٤٠) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ .
- (٤١) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٥ .
- (٤٢) عبد الرحمن الجبرتي ، دراسات وبحوث ، مقال بقلم الدكتور ابراهيم العنوي ص ٧٦ .
- (٤٣) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .
- (٤٤) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ١٧ .
- (٤٥) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٨ ، ٢٩ .
- (٤٦) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٦٣ ، ٦٤ .
- (٤٧) د . السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثماني الى الاحتلال البريطاني (١٥١٧ - ١٨٨٢ م) ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٦٦ .
- (٤٨) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .
- (٤٩) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٣٩ ، ٤٠ .
- (٥٠) المرجع السابق ، ص ٤٠ .
- (٥١) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٤٣ .
- (٥٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٦٣ .
- (٥٣) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٢٠ .
- (٥٤) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٢٢١ .
- (٥٥) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .
- (٥٦) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ١١٧ .
- (٥٧) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٣٦ .
- (٥٨) محمد أنيس ، مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٤ ، ١٥ .

- (٥٩) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ١٩٩ .
- (٦٠) عجائب الآثار ، ج ١ ص ٣٩٦ .
- (٦١) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٣٩٦ .
- (٦٢) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .
- (٦٣) جران : المرجع السابق ، ص ٢٣ ، ٢٤ .
- (٦٤) أنظر : ترجمة الشيخ الزبيدي في : عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ١٩٦ - ٢١٠ .
- (٦٥) عجائب الآثار : ج ١ ، ص ٧٨ ، ٨١ .
- (٦٦) عجائب الآثار : ج ١ ، ص ٤٨ ، ٤٩ .
- (٦٧) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث من الحملة الفرنسية الى عصر اسماعيل ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ١٧٨ .
- (٦٨) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٦١ .
- (٦٩) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .
- (٧٠) عجائب الآثار ج ٣ ، ص ١٩٢ .

* * *

الفصل الثالث

الجبرتي والفكر السلفي

ينحدر الشيخ محمد بن عبد الوهاب من أسرة من الفقهاء كانت تقيم في بلدة العيينة من إقليم نجد (١) ، وعن أسلافه وعلماء بلده تلقى تعليمه الديني وفق قواعد المذهب الحنبلي الذي كان منتشرًا في نجد ، وفي هذه البيئة البسيطة تعلم فقه الإسلام في أصوله الواضحة والبسيطة كما وعاما السلف الصالح . وخلال تجواله في مناطق متعددة من العالم الإسلامي لطلب العلم رأى كل هذه الانحرافات التي أشرنا إليها ، ورأى المسلمين قد انحدروا إلى حضيض من الشرك لا يمكن قبوله أو السكوت عليه ، وأدرك أن مثل هذه النفوس التي تذل للحجر والشجر والأرواح لا تستطيع أن تأمر بمعروف أو تنهى عن منكر أو تواجه حاكما ظالما ، وأدرك أن ذلك هو السبب الرئيسي في أزمة الحكم خلال تلك الفترة ، فقد ذل الناس للحكام بعد أن ذلوا للخشب والحجر والشجر (٢) ، وكانت تلك البدع والخرافات لا تتفق مع أفكاره عن الإسلام السلفي الذي تعلمه ، وكان هاديه في موقفه ذلك التراث الفكري الذي خلفه مجموعة من العلماء الأفاضل من أمثال أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ / ٧٨٠ - ٨٥٥ م) وابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) وابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٠١ هـ / ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م) ، ومن هنا كان التحدي الذي واجهه محمد بن عبد الوهاب وهو ما طرأ على الإسلام من بدع ومحدثات وإضافات سواء كانت هذه المحدثات وليدة الجهل والخرافة أو ثمرة الاحتكاك بالمجتمعات المتقدمة ذات الحياة الفكرية المعقدة والمنحرفة في بعض الأحيان أو مزيجا من المصدرين معا (٣) .

وأدرك أن الشرك قد تسرب الى عقائد المسلمين وأنهم أصبحوا يتخذون من الوسائل والوسائط زلفى يتقربون بها الى الله ، وبذلك عادوا الى موقف الجاهلية الأولى عندما كان المشركون يتخذون من الأوثان وسائط تقربهم الى الله . فحكم محمد بن عبد الوهاب على هؤلاء بالشرك ذلك لأنهم — وان وحدوا الله من حيث الوهيته — فإنهم أشركوا في العبادة عن طريق الوسائل التي اتخذوها لتقربهم الى الله (٤) ، وكلها أمور تتعارض مع جوهر العقيدة وهو التوحيد أي اخلاص العبادة لله وحده . ومن ثم ركز ابن عبد الوهاب جهده الفكري على تنقية عقيدة التوحيد مما شابها من شوائب وانحرافات بعد عصر السلف ، والتوحيد عند الشيخ محمد بن عبد الوهاب يعني أيضا وحدة مصدر التشريع وهو الكتاب والسنة فلا مصدر في التشريع الاسلامي الا كتاب الله وسنة رسوله .

أما الركن الثاني في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فهو الاجتهاد بشرط عدم مخالفته لنصوص القرآن والسنة الصحيحة ، وكل مستوف لشروط الاجتهاد من علماء المسلمين يمكنه أن يجتهد بل يجب عليه أن يجتهد ، ذلك لأن قفل باب الاجتهاد كان أحد الكوارث التي حلت بالمسلمين وجعلتهم مقلدين جامدين (٥) .

ولم تكن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بهذه الصورة جديدة على الفكر الاسلامي فهي امتداد لمذهب ابن حنبل وابن تيمية وان كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يتبع مذهب أحمد بن حنبل في جميع الأحوال شأنه في ذلك شأن ابن تيمية الذي تأثر به ابن عبد الوهاب كثيرا ، فابن تيمية كان يقول بالاجتهاد ولو خالف الحنابلة في حدود الكتاب وصحيح السنة ، وعنه أخذ ابن عبد الوهاب الاجتهاد والدعوة للاصلاح (٦) .

لكن أهمية الشيخ محمد بن عبد الوهاب تكمن في أنه لم يكن

مجرد داعية أو صاحب فكر يعلنه ليستقر في متاحف التراث ولكنه كان يدرك منذ اللحظة الأولى أهمية السلطة أو الدولة في حماية الفكر ووضع الدعوة موضع التطبيق والممارسة ، ومن ثم كانت مغادرته لبلدته حريماً التي بدأ فيها دعوته إلى العيينة مستعيناً بحاكمها ابن معمر لخدمة دعوة التوحيد(٧) ، غير أن ابن معمر لم يستمر في تأييد الشيخ حتى نهاية الطريق ، فقد تراجع عند أول صدام بالقوى المعادية للدعوة ، ذلك أنه عندما شرع الشيخ محمد ابن عبد الوهاب في هدم قبة زيد بن الخطاب (ت ١٢ هـ / ٦٢٣ م) التي كانت مزاراً عظيماً في بلدة الجبيلة يعظمه الناس كادت تحدث بسبب ذلك حرب مع أهل الجبيلة وأعقب هدم هذه القبة انتفاضة في صفوف الأعراب بقيادة سليمان بن شامس هددوا معها حاكم العيينة بالثورة ضده مما جعله يتراجع عن نصرته الشيخ ويتخلى عن تأييد دعوة التوحيد وطلب من الشيخ أن ينجو بنفسه قبل أن يفتك به الفاضبون(٨) ، فغادر الشيخ ابن عبد الوهاب العيينة قاصداً الدرعية حيث لقي أميرها محمد بن سعود الذي رحب به واستجاب لدعوته وكان الحوار الذي دار بينهما في ذلك اللقاء التاريخي عام ١١٥٨ هـ (١٧٤٥ م) بمثابة تعاهد على تأسيس دولة جديدة في شبه جزيرة العرب على أسس من الإسلام الصحيح(٩) وعن طريق ذلك التحالف بين العقيدة والسلطة استطاعت الدعوة أن تتجاوز حدود الدرعية واستجابت لها نجد والمناطق النائية لها . وخلال هذه العملية النضالية كان الشيخ مجبوراً للنشاط فهو يكتب أهل البلاد الأخرى داعياً ، وهو يتصن بالهيجاج في موسم الحج ، ويبث في الخصومات وفي العلاقات السياسية وفي المعاهدات بين الحكام باعتبار أنه أعلم بالدين والأحكام(١٠) .

ومنذ ذلك التاريخ شهدت شبه الجزيرة العربية قيام حركة إصلاحية تتحدى فكر العصور الوسطى وتفكر خرائتها وتتبنى مبادئها . دولة مالبثت أن راحت تتحدى سلطة خلفاء آل عثمان بعد أن سيطرت على الحجاز ودخلت قواتها المدينة المنورة في عام ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م وهدمت قباب قبورها ومزاراتها ، كما خضعت لها مكة في العام التالي حيث حج الأمير سعود في نفس العام وأعلن انكار وجود أي سلطة للخليفة العثماني على الحرمين الشريفين ، وأعاد المحامل القادمة من الشام ومصر والعراق واستأنبول لما يصابها من بدع .

ولم تكف الدولة الجديدة بهذا بل راحت تهدد العراق ، ففي عام ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) دخلت قوات آل سعود كربلاء وهدمت ما بها من قباب ومزارات ، ووصل آل سعود في بعض غزواتهم إلى مشارف بغداد . وعلى ذلك ففي مطلع القرن التاسع عشر كان نفوذ آل سعود قد شمل الحجاز وأزال النفوذ العثماني من الحرمين الشريفين ، وأدركت الدولة العثمانية أنه لم يعد في مقدور ولايتها في العراق والشام التصدي لهذا الخطر الذي أصبح يهدد البلدين ، ولذلك اتجهت أنظارها إلى محمد علي واليها على مصر ، الذي استجاب لذلك ابتداء من عام ١٨١١ (١١) .

وقد تمكن محمد علي من تحقيق رغبة السلطان العثماني في القضاء على الدولة السعودية بعد حرب ضارية استمرت سبع سنوات (١٢٢٨ - ١٢٣٣ هـ / ١٨١١ - ١٨١٨ م) قادها كل من محمد علي وأبنيه طوسون وإبراهيم (١٢) . وإذا كانت الدولة التي أقامها الموحدون قد ضربت على المستوى السياسي فان الدعوة نجحت في ثورتها على الشوائب والانحرافات التي لحقت بقضية التوحيد ، ومن ثم فتح الطريق للثورة على الجمود والتخلف الذي

خلفته العصور الوسطى ، ذلك أن حركة الإصلاح الدينى التى قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب برفضها للأفكار الموروثة من تراث العصور الوسطى قد فتحت الطريق لنقد هذا التراث وأصبحت هى الأساس الذى انطلقت منه حركات الإصلاح الدينى فى القرن التاسع عشر (١٣) .

— ومن الطبيعى أن تلقى هذه الدعوة اهتمام المعاصرين ، ومنهم الجبرتى .

الموحدون فى عجائب الآثار :

لم ترد نى كتابات الجبرتى أية اشارات عن الدعوة السلفية أو تحركات آل سعود قبل عام ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) ويرجع ذلك الى عدد من الأسباب فى رأى :

١ — ان الجبرتى لم يهتم بكتابة التاريخ بشكل جدى قبل مجيء الحملة الفرنسية عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) أى بعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بتسع سنوات ، وكان كل ما كتبه قبل ذلك التاريخ هو بعض ترجمات متفرقة لأعيان القرن الثانى عشر وحتى هذه الترجمات كان الجبرتى قد توقف عنها عقب وفاة المرادى عام ١٢٠٦ هـ (١٧٩١ م) ، وفترت همته حتى عاد لكتابة التاريخ يدافع جديد مع مجيء الحملة الفرنسية الى مصر (١٤) .

٢ — ان الحملة الفرنسية قد شغلت الجبرتى عما عداها من احداث خلال فترة وجود الفرنسيين فى مصر ، فهو يقول فى بداية الجزء الثالث من عجائب الآثار عن عام ١٢١٣ هـ (سنة وصول الحملة الفرنسية) « .. وهى أول سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع

وانقلاب الموضوع وتتابع الأحوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب «(١٥)» .

٣ - ان دعوه الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم تلفت الانتظار فى المنطقة - خارج شبه الجزيرة - الا بعد أن شرع آل سعود فى تهديد الحجاز ، كما ان السلطات العثمانية لم تكن تنظر الى هجمات السعوديين على العراق قبل ذلك التاريخ الا على أنها مجرد مشكلات على الحدود يمكن أن يواجهها والى بيغداد(١٦) .

وكانت أول اشارة أوردها الجبرتى فى عجائب الآثار عن الموحدين هى ما ذكره فى حوادث شعبان عام ١٢١٧ هـ عندما قال : « وفيه حضرت جماعة من اشراف مكة وعلمائها هروبا من الوهابيين .. »(١٧) .

وقد أورد الجبرتى اخبار الموحدين ومبادئ الدعوة السلفية بعد هذا التاريخ فى أكثر من سبعين موضعا غطت الفترة من عام ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) حتى عام ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ م) (١٨) ، تناول الجبرتى خلالها ثلاث قضايا رئيسية هى : الصراع بين الاشراف وآل سعود ، ثم الحرب فى شبه جزيرة العرب بين الموحدين وقوات محمد على ، وأخيرا رؤية الجبرتى لمبادئ الدعوة السلفية بالاضافة الى عدد من القضايا الفرعية .

الصراع بين الاشراف وآل سعود :

وأول ما يلفت النظر فيما كتبه الجبرتى حول هذا الموضوع هو تحريض اشراف مكة للعثمانيين ضد آل سعود واستعدادهم عليهم خصوصا بعد ان ندهور موقف الاشراف فى هذا الصراع على الرغم من ان الاشراف كانوا هم البادئين بهذه البداوة عندما

رفض الشريف مسعود بن سعيد الذي عاصر الأمير محمد بن سعود (١١٣٨ هـ - ١١٧٩ هـ / ١٧٢٥ - ١٧٦٥ م) أن يسمح لأهل نجد بأداء فريضة الحج ، ثم شرع الأشراف في مهاجمة أطراف نجد ابتداء من عام ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) . غير أنه ابتداء من عام ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) بات واضحاً أن مركز الأشراف قد أخذ يتدهور في هذا الصراع بعد أن أخذت بعض قبائل الحجاز تنفض عنهم وتنضم للدعوة السلفية ، فراح الأشراف يستنجدون بالدولة العثمانية ويحرضونها ضد آل سعود (١٩) . ومن ثم تحركت وفود الأشراف إلى القاهرة في طريقها إلى القسطنطينية لاستعداد الدولة العثمانية وطلب مساعدتها ، فالجبرتي يذكر في حوادث شهر شعبان من عام ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) « وفيه حضرت جماعة من أشراف مكة وعلمائها هربوا من الوهابيين وقصدهم السفر إلى اسلمبول يخبرون الدولة بقيام الوهابيين ويستنجدون بهم لينقذوهم منهم ويبادروا لنصرهم عليهم فذهبوا إلى بيت الباشا والدفتردار وأكابر البلد وصاروا يحكون ويشكون وتنقل الناس أخبارهم وحكايتهم » (٢٠) .

ثم يذكر الجبرتي في أحداث شهر شوال من نفس العام نبأ وصول مجموعات أخرى من الأشراف لنفس الغرض وهو استعداد الدولة العثمانية ضد آل سعود فيقول : « وفي غايته حضر أولاد الشريف سرور شريف مكة هرباً من الوهابيين يستنجدون بالدولة فنزلوا ببيت المحروقي بعد ما قابلوا محمد باشا وإلى مصر وشريف باشا وإلى جدة » (٢١) .

ويبدو أن الدولة العثمانية بدأت تستجيب خلال هذه الفترة المبكرة لنداءات الأشراف ، فالجبرتي يقول في أحداث شهر ذي القعدة عام ١٢١٧ هـ « وفي خامس عشرينه حضر أحمد باشا إلى

لمياط وكانوا أرسلوا له طوخا ثالثا وأنه يحضر ويتوجه لمحافظة مكة وكذلك قلدوا آخر باشوية المدينة يسمى أحمد باشا وضموا لها عسكرا يسافرون صحبتهم للمحافظة من الوهابيين وأخذوا في التشهيل « (٢٢) » .

وعندما استولى آل سعود في هجوم صاعق على الطائف عام ١٢١٧ هـ على أثر الانشقاق الذي حدث في جبهة الاشراف بانضمام عثمان بن عبد الرحمن المضايقي الى آل سعود كتب الجبرتي في أحداث شهر ذي الحجة يقول : « وفي يوم الجمعة خامس عشره حضرت مكاتبات من الديار الحجازية يخبرون فيها عن الوهابيين أنهم حضروا الى جهة الطائف فخرج اليهم شريف مكة الشريف غالب فحاربهم فهزموه فرجع الى الطائف فأحرق داره التي بها وخرج هاربا الى مكة فحضر الوهابيون الى البلدة وكبيرهم المضايقي نسيب الشريف وكان قد حصل بينه وبين الشريف وحشة فذهب مع الوهابيين وطلب من سعود الوهابي أن يؤمره على العسكر الموجهة لمحاربة الشريف ففعل فحاربوا الطائف وحاربهم أهلها ثلاثة أيام حتى غلبوا فأخذ البلدة الوهابيون واستولوا عليها عنوة وقتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال » (٢٣) .

ثم يسجل الجبرتي أخبار استيلاء آل سعود على مكة عام ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) وانسحاب الشريف غالب منها وهدم القباب ومشاهد القبور في حوادث شهر محرم فيقول « وفيه حضر هجان على يده مكاتيب مؤرخة في عشرين شهر ذي الحجة مضمونها أن الوهابيين أحاطوا بالديار الحجازية وأن شريف مكة الشريف غالب تداخل مع شريف باشا (سنجق جدة) وأمير الحج المصري والشامي وارشاهم حتى يتعوقوا معه أياما حتى ينقل ماله ومتاعه الى جدة وذلك بعد اختلاف كبير وحل وريط » (٢٤) .

ثم يعود الجبرتي فيؤكد خبرا استيلاء آل سعود على مكة في حوادث نفس الشهر فيقول : « وفي يوم الأحد حضر الشريف عبد الله ابن سرور وصحبته بعض أقاربه من شرفاء مكة وأتباعهم نحو ستين نفرا وأخبروا أنهم خرجوا من مكة مع الحجاج وان عبد العزيز ابن سعود الوهابي دخل مكة من غير حرب وولى الشريف عبد المعين أميرا على مكة والشيخ عقيل قاضيا وأنه هدم قبة زمزم والقباب التي حول الكعبة والأبنية التي أعلى من الكعبة وذلك بعد أن عقد مجلسا بالحرم وباحثهم على ما الناس عليه من البدع والمحرمات المخالفة للكتاب والسنة وأخبروا أن الشريف غالب وشريف باشا ذهبا الى جدة وتحصنا بها وأنهم فارقوا الحجاج في الجديدة » (٢٥) .

ومالبت الجبرتي أن أورد خبر استرداد الشريف غالب مكة بعد عودة قوات آل سعود الرئيسية الى نجد ، وقد ذكر ذلك في موضعين ، ففي أحداث شهر ربيع الثاني من نفس العام يقول : « في يوم السبت رابعه وردت هجانة من ناحية ينبع وأخبروا أن الوهابيين جلوا عن جدة ومكة بسبب أنهم جاءهم أخبار بأن العجم زحفوا على بلادهم الدرعية وملكوا بعضها والأوراق بها خطاب من الشريف باشا وشريف مكة لطاهر باشا » (٢٦) . ثم يقول في حوادث شهر جمادى الثانية : « وفي هذا الشهر تحقق الخبر بجلاء الوهابي عن جدة ومكة ورجوعه الى بلاده وذلك بعد أن حاصر جدة وحاربها تسعة أيام وقطع عنها الماء ثم رحل عنها وعن مكة ورجع الشريف غالب الى مكة وصحبته الشريف باشا » (٢٧) .

وتفيد الأخبار التي أوردها الجبرتي عن شهر شوال بأن الدولة العثمانية كانت بصدد إرسال قوات الى الحجاز لتقوية مركز الشريف

باشا الوالى التركى هناك ، حيث يذكر أن الوالى الجديد حضر الى مصر وبصحبته قوة كبيرة وعندما سئل من قبل بعض الممالك عن سبب اصطحابه لهذه القوة قال : « انما هذه العساكر متوجهة الى الحجاز تقوية لشريف باشا على الخارجى » (٢٨) . ويمضى الجبرتى فى تصوير جهود الدولة العثمانية خلال تلك الفترة لدعم موقف الاشراف والوالى العثمانى فى مواجهة آل سعود ، فيقول ، « وفى خامس عشرينه (شهر شوال) عملوا ديوانا وقرأوا فرمانا وصل من الدولة مع الططر خطابا لعلى باشا والأمراء بتشهيل أربعة آلاف عسكر وسفرهم الى الحجاز وارسل ثلاثين ألف أردب غلال الى الحرمين » (٢٩) .

وعندما عادت قوات آل سعود الى محاصرة مكة وتضييق الخناق على الشريف غالب كتب الجبرتى فى حوادث شهر ربيع اول عام ١٢٩ هـ (١٨٠٤ م) يقول : « ونفى ثالث عشره ورد الخبر بوصول مراكب داوات من القلزم الى السويس وفيها حجاج والمحمل وأخبروا بمحاصرة الوهابيين لمكة والمدينة وجدة » . ثم بصور الأوضاع فى المدينة خلال فترة الحصار بقوله : « ان أكثر اهل المدينة ماتوا جوعا لعزة الأقوات والأردب القمح بخمسين فرانسا ان وجد والأرز بمائة فرانسا وقس على ذلك » (٣٠) .

ثم أشار الجبرتى فى حوادث شهر ربيع الثانى الى سقوط ينبع فى أيدي قوات آل سعود ، كما أشار الجبرتى الى تحريك الدولة العثمانية لبعض قواتها فى الشام الى الحجاز (٣١) ، وطلب السلطات العثمانية من والى مصر ارسال ما يحتاج اليه باشا ينبع العثمانى من ذخيرة « لمخافتها من الوهابيين » . . وكذلك اعطاء محمد باشا والى جدة « ما يحتاج اليه من الذخيرة لأجل حفظ الحرمين » (٣٢) .

وكنتيجة لوطأة الحصار وأدراك الشريف غالب انه لم يعد
فى وسعه مقاومة قوات آل سعود طلب الشريف غالب الصلح
وقبل أن يبقى فى امارته تابعا للدرعية منفذا لتعليمات الدعوة
السلفية ، وتم الصلح بينه وبين آل سعود ، وعلى اثر ذلك دخلت
قوات آل سعود مكة وفتحت الطرق المؤدية لها (٣٣) . وقد سجل
الجبرتي هذه الحقائق فى حوادث شهر المحرم ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م)
بقوله : « وفى هذه الأيام أيضا وصلت الأخبار من الديار الحجازية
بمسالة الشريف غالب للوهابيين وذلك لشدة ما حصل لهم من
المضايقة الشديدة وقطع الجالب عنهم من كل ناحية حتى وصل من
الأردب المصرى من الأرز خمسمائة ريال والأردب البر ثلثمائة
وعشرة وقس على ذلك السمن والعسل وغير ذلك فلم يسع
الشريف الا مسالمتهم والدخول فى طاعتهم وسلوك طريقتهم وأخذ
العهد على دعائهم وكبيرهم بداخل الكعبة وأمر بمنع المنكرات
والتجاهر بها وشرب الأراجيل بالتنبك فى السعى بين الصفا
والمروة وبالملازمة على الصلوات فى الجماعة ودفع الزكاة وترك
لبس الحرير والمقصبات وإبطال المكوس والمظالم » (٣٤) .

ويوضح الجبرتي كيف ان سيطرة آل سعود قد عكست بعض
الرخاء فى تلك المناطق فيقول : « فعند ذلك أمنت السبل وسلكت
الطرق بين مكة والمدينة وبين مكة وجدة والطائف وانحلت الأسعار
وكثر وجود المطعومات وما يجلبه عربان الشرق الى الحرمين من
الغلال والأغنام والأسمان والأعسال حتى بيع الارذب من الحنطة
بأربعة ريالات » (٣٥) .

ولم تنه معاهدة عام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) الصراع بين
الأشراف وآل سعود فقد واصل الأشراف تحريض الدولة العثمانية
ضد آل سعود سرا خصوصا بعد أن لاحت بوادر تدخل محمد على

فى شبه الجزيرة ، وخلال تلك الفترة كان الشريف غالب يلعب سياسة مزدوجة تقوم على اظهار الولاء لآل سعود والعمل فى نفس الوقت على الاتصال بالدولة العثمانية ومحمد على فى مصر مبدىا استعدادده لمساعدتهم وهى الحقيقة التى أشار اليها الجبرتى فى حوادث شهر رمضان عام ١٢٢٩ هـ (١٨١١ م) « والشريف غالب أمير مكة يكاتب الباشا ويراسله ويظهر له النصيح والصداقة وخلص المودة والباشا أيضا يراسله ويكاتبه وأرسل له السيد سلامة البخارى والسيد أحمد المنلا الترجمان المحروقى بمراسلات وجوابات مرارا عديدة فكانا هما السفيرين بينهما وأيضا الشريف فى كل كتابة مع كل مرسول يعاهد الباشا ويعاقده ويواعده بنصر عساكره متى وصلت وينافق الطرفين الذى هو العثماني والوهابي ويداهنهما . اما الوهابي فلخوفه منه وعدم قدرته عليه فيظهر له الموافقة والامثال وأنه معه على العهود التى عاهده عليها من ترك الظلم واجتناب البدع ونحو ذلك ويميل باطنه للعثمانيين لكونه على طريقته ومذهبهم وتعاهد مع الباشا انه متى وصلت عساكره قام بنصرتهم وساعدهم بكلية وجميع همته وأرسل الى المراكب الكائنة بمرساة ينبع بأن ينقلوا ما فيها من مال التجار وغيرهم ويودعوه قلعة ينبع تحت يد وزيره وترك معه نحو الخمسمائة من عساكره وأخذ المراكب فأوسقها من بضائعه وبهاره وبنيه وأرسلها الى السويس لتباع بمصر ثم توسق بمهمات العسكر البحرية» (٣٦).

وخلال عرض الجبرتى للصراع بين آل سعود والأشراف فى تلك الفترة تعرض الجبرتى لقضية فساد حكم الأشراف فى مكة فى أكثر من موضع ، فهو يقول فى ترجمته لحياة محمد أغندى الموظف بالرزنامة (ت ١٢١٨ هـ) « ولما اختلفت الأحوال وترادفت الفتن ضاق صدره من ذلك واستوحش من مصر وأحوالها فقصد الهجرة بأهله وعياله الى الحرمين وعزم على الإقامة هناك فلما

وصل هناك رأى فيها الاختلاف والخلل كذلك بسبب ظلم الشريف
غالب واتباعه وغارة الوهابيين على الحرمين وفتن العربان فلم
يستحسن الإقامة هناك « (٣٧) . ويستطرد الجبرتي فى وصف
مساوىء حكم الأشراف خلال تعليقه على الصلح الذى وقعه
الشريف غالب مع آل سعود فيقول الجبرتي انه تم ابطال المكوس
والمظالم وان الأشراف كانوا قد خرجوا عن الحدود فى ذلك « حتى
ان الميت يأخذون عليه خمسة فرانسة وعشرة بحسب حاله وان
لم يدفع أهله القدر الذى يتقرر عليه فلا يقدرّون على رفعه ودفنه
ولا يقترب اليه الفاسل ليغسله حتى يأتيه الاذن وغير ذلك من
البدع والمكوس والمظالم التى أحدثوها على المبيعات والمشتريات
على البائع والمشتري ومصادرات الناس فى أموالهم ودورهم فيكون
الشخص من سائر الناس جالسا بداره فما يشعر على حين غفلة
منه الا والأعوان يأمرّونه باخلاء الدار وخروجه منها ويقولون ان
سيد الجميع محتاج اليها فاما أن يخرج منها وتصير من أملاك
الشريف واما أن يصلح عليها بمقدار ثمنها أو أقل أو أكثر فعاهده
على ترك ذلك كله « (٣٨) .

ويرى الجبرتي انه على الرغم من الصلح الذى تم بين آل
سعود والشريف غالب بعد مناظرة تمت مع علماء الدعوة
السلفية « وإقامة الحجة بالأدلة التى لا تقبل التأويل من الكتاب
والسنة » فان الشريف غالب استمر يأخذ العشور من التجار
« واذا نوقش نى ذلك يقول هؤلاء مشركون وأنا آخذ من المشركين
لا من الموحدين « (٣٩) .

الحرب فى شبه الجزيرة بين محمد على وآل سعود :

فى أعقاب استيلاء آل سعود على المدينة المنورة فى عام
١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) ودخول الشريف غالب فى طاعتهم اتخذ الأمير

سعود (١٢١٨ - ١٢٢٩ هـ / ١٨٠٣ - ١٨١٤ م) — خلال أدائه فريضة الحج عام ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م) — عدة إجراءات لتأكيد سيادة آل سعود على الحجاز وإزالة كل مظهر لسيادة العثمانيين على الأماكن المقدسة ، فطرد الموظفين الأتراك وبقايا الحامية العثمانية والقاضيين التركيين من مكة والمدينة وأصدر أمرا بمنع قوافل الحج المصحوبة بالمحمل والآتية من مصر والشام ، وبذلك أزيلت كل مظاهر السيادة العثمانية على الحرمين الشريفين (٤٠) .

وقد أشار الجبرتي الى هذه الوقائع في حوادث شهر ربيع الثاني عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) بقوله : « وفي يوم الأحد سابعه وصلت القافلة والحجاج من ناحية القلزم على مرسى السويس وحضر فيها أغوات الحرم والقاضي الذي توجه لقضاء المدينة وهو المعروف بمسعد بيك وكذلك خدام الحرم المكي وقد طردهم الوهابي جميعا فاما القاضي المنفصل فنزل في مركب ولم يظهر خبره وقاضي مكة توجه بصحبة الشاميين وأخبر الواصلون أنهم منعوا من زيارة المدينة وان الوهابي أخذ كل ما كان في الحجرة النبوية من الذخائر والجواهر وحضر أيضا الذي كان أميرا على ركب الحجاج وصحته مكاتبة بن سعود الوهابي ومكتوب من شريف مكة وأخبروا أنه أمر بحرق المحمل » .

وقد أشار الجبرتي الى أن الأخبار التي كانت تردد عن الموحدين خلال تلك الفترة كانت تخضع لاهواء أصحابها فيقول مستطردا : « واضطربت أخبار الاخباريين عن الوهابي بحسب الأغراض ومكاتبة الوهابي بمعنى الكلام السابق في نحو الكراسة وذكر فيها ما ينسب به الناس اليه من الأقوال المخالفة لقواعد الشرع ويتبرأ عنها » (٤١) .

وكان طبيعيا أن تثير سيطرة آل سعود على الحرمين الدولة العثمانية لأن خروج الأماكن المقدسة من سيادتها كان سوف يضعف

من مركزها فى العالم الاسلامى ، ومن ناحية أخرى فان الأشرافَ واصلوا الاتصال بالدولة العثمانية وراحوا يضخمون من تصرفات آل سعود فى مواجهة الدولة العثمانية (٤٢) . كما أن العناصر المستفيدة من الأوضاع التى كانت سائدة فى ظل حكم الأشراف والدولة العثمانية راحت هى الأخرى تضغط فى اتجاه تحريض العثمانيين على استرداد السيادة العثمانية على الحجاز ، وقد أشار الجبرتى الى الحقيقة الأخيرة فى حوادث شهر ذى الحجة عام ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨ م) بقوله : « لما امتنعت قسوافل الحج المصرى والشامى وانقطع عن أهل المدينة ومكة ما كان يصل اليهم من الصدقات والعلائف والصرر التى كانوا يتعيشون منها خرجوا من أوطانهم بأولادهم ونسائهم ولم يمكث الا الذى ليس له ايراد من ذلك وأتوا الى مصر والشام ومنهم من ذهب الى 'سلامبول يتشكون من الوهابى ويستغيثون بالدولة فى خلاص الحرمين لتعود لهم الحالة التى كانوا عليها من اجراء الأرزاق واتصال الصلات والنيابات والخدم فى الوظائف التى بأسماء رجال الدولة كالفراشة والكناسة ونحو ذلك ويفكرون ان الوهابى استولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر ونقلها وأخذها فيرون ان أخذه لذلك من الكبائر العظام » (٤٣) .

وكان طبيعيا أن تتحرك الدولة العثمانية جديا للقضاء على نفوذ آل سعود للحفاظ على هيبتها ومصالحها خصوصا بعد استمرار آل سعود فى تهديد العراق والشام ، وشرعت الدولة العثمانية فى البداية بالاستعانة بولاية الشام والعراق ، فيذكر الجبرتى فى حوادث شهر صفر من عام ١٢٢٤ هـ (١٨٠٩ م) أنه ورد فى ذلك الشهر « أمر بالسفر والخروج الى فتح الحرمين وطرد الوهابية عنهما وان يوسف باشا الصدر السابق المعروف بالمعدن تعين بالسفر للحرمين على طريق الشام وكذلك سليمان باشا

والى بغداد متعين أيضا بالسفر من ناحيته على الدرعية وأحضر
للباشا تقريراً بالولاية مجدداً « (٤٤) » .

وأول إشارة لاستعدادات محمد على لحرب شبه الجزيرة
أوردها الجبرتي في حوادث شهر جمادى الثانية عام ١٢٢٥ هـ
(١٨١٠ م) بتقليد ديوان أفندى « نظر مهمات الحرمين والتأهب
لسفر الحجاز لمحاربة الوهابية » ، ثم يذكر في حوادث شهر رجب
نبأ وصول مندوب من طرف الدولة العثمانية معه أوامر « وخلعة
وسيف وخنجر لـ محمد على باشا وصحبته أيضا مهمات وآلات
ومراكب ولوازم حروب لسفر البلاد الحجازية ومحاربة
الوهابية » (٤٥) .

وعندما شرع محمد على في إرسال قواته الى شبه جزيرة
العرب بقيادة ابنه طوسون أشار الجبرتي الى ذلك في حوادث
شهر صفر عام ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) بقوله : « وفيه قلد الباشا
ابنه طوسون باشا صارى عسكر الركب الموجه الى الحجاز
وأخرجوا جيشهم الى ناحية قبة العزب ونصبوا عرضيا وخياما
وأظهر الباشا الاجتهاد الزائد والعجلة وعدم التوانى ونوه بتسفير
عساكر لـ ناحية الشام لتمليك يوسف باشا لمحطه وصارى عسكرهم
شاهين بك الألبانى ونحو ذلك من الايهامات وطلب من المنجمين ان
يختاروا وقتا صالحا للباس ابنه خلعة السفر فاختاروا له الساعة
الرابعة من يوم الجمعة » (٤٦) .

وعندما تمكنت حملة طوسون من الاستيلاء على ينبع أشار
الجبرتي الى ذلك في حوادث شهر شعبان عام ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م)
وأضاف أن هذه القوات نهبت ما كان موجودا في المدينة من أموال
وودائع كما صور جانباً من المعركة التى نشبت بين قوات طوسون
والقوات التى تصدت لها من الموحدين والفظائع التى ارتكبتها

قوات طوسون بعد الاستيلاء على المدينة بقوله « ونهبوا كل ما كان بالينبع من الودائع والأموال والأقمشة والبن وسبوا النساء والبنات الكائنات بالبندر وأخذوهن أسرى ويبيعنهن على بعضهم البعض » (٤٧) .

ويستطرد الجبرتي فيصور جانباً من القتال الذي نشب بين قوات آل سعود بقيادة جابر بن جبارة وقوات طوسون وكيف انتصرت قوات طوسون في البداية ثم كيف واجهت هزيمة ساحقة بعد ذلك في هجوم مضاد قاده عبد الله بن سعود ، ويصور الجبرتي إبعاد هذه الهزيمة والرعب الذي سيطر على قوات طوسون خلال المعركة وذلك في حوادث شهر ذي الحجة ، ويقول الجبرتي انه على الرغم من أن حجم الهزيمة كان فادحاً فان محمد علي لم يتزلزل « ولما حصل ذلك لم يتزلزل الباشا واستمر على همته في تجهيز عساكر أخرى » (٤٨) .

ويوضح الجبرتي كيف ان قوات آل سعود لم تطارد فلول قوات طوسون المنهزمة عقب معركة الصفراء مما مكن طوسون بتدبير شريف مكة من احتلال وادي الصفراء في المرحلة التالية ، فيقول الجبرتي في حوادث شهر رمضان ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) : « في رابع عشرينه وردت هجانة مبشرون باستيلاء الأتراك على عقبة الصفراء والجديدة من غير حرب بل بالمخادعة والمصالحة مع العرب وبتدمير شريف مكة » (٤٩) . كما أشار الجبرتي الى استيلاء قوات طوسون على المدينة المنورة في حوادث شهر ذي الحجة عام ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) وكذلك الاستيلاء على جدة ومكة في أوائل عام ١٢٢٨ هـ (١٨١٣ م) مركزاً على الأساليب التي اتبعتها طوسون باشا والشريف غالب في استمالة القبائل فيقول « ولما وصل بونايرته (أحد قادة القوات التي أرسلت الى طوسون) الى ينبع البر أخذوا في تأليب العريان واستمالتهم وذهب اليهم ابن شديد

الحويطى ومن معه وتقابلوا مع شيخ حرب ولم يزالوا به حتى وافقهم وحضروا به الى بونابرتة فأكرمه وخلع عليه الخلع وكذلك على من حضر من اكابر العريان فألبسهم الكساوى والفراوى السمور والشالات الكشمير ملء أربع سحاحير وصب عليهم الأموال وأعطى لشيخ حرب مائة ألف فرانسة عين وحضر باقى المشايخ فخلع عليهم وفرق فيهم فخص شيخ حرب بمفرده ثمانية عشر ألف فرانسة ثم رتب لهم علائق تصرف لهم فى كل شهر لكل شخص خمسة فرانسة وغرارة بقسماط وغرارة عدس فعند ذلك ملكوهم الأرض .. كل ذلك بمغامرة الشريف غالب أمير مكة وتديره وإشاراته فلما تم ذلك أظهر الشريف غالب أمره وملكهم مكة والمدينة « (٥٠) » .

كما أورد الجبرتى نبأ الاستيلاء على الطائف والظروف التى تم فيها أسر المضايقى وأورد تفاصيل انفصاله عن الشريف غالب وبلائه فى الحرب تحت راية آل سعود وذلك فى حوادث شهر شوال عام ١٢٢٨ هـ (١٨١٣ م) وفى نهاية ذلك علق الجبرتى على موقف الشريف غالب المتعاون مع قوات محمد على بقوله : « لياخذ بذلك وجاحة عند الأتراك الذى هو على ملتهم ويتحقق لديهم نصحه لهم ومسألمته اياهم وسيلقى قريبا منهم جزاء ما فعله وبأن أمره « (٥١) » .

وفى المرحلة الثانية من الحرب فى شبه الجزيرة التى قادها محمد على أشار الجبرتى الى سفر محمد على الى الحجاز فى ١٤ شوال ١٢٢٨ هـ (أغسطس ١٨١٣ م) كما أشار الجبرتى فى حوادث شهر ذى القعدة عام ١٢٢٨ هـ الى الوفد الذى أرسله الأمير سعود الى محمد على لئلا أسر المضايقى مقابل مائة ألف فرانسة والنظر فى الصلح بينه وبين محمد على ، قال الجبرتى انه أثناء وجود هذا الوفد أجرت قوات محمد على تدريبات (مناورة بالذخيرة

حتى يؤثر على نفسية الوفد فينقل ذلك للأمير سعود ولكن هذه المحاولة لم تسفر عن نتيجة لأن المضايقي كان قد أرسل من قبل محمد على إلى الدولة العثمانية (٥٢) . وأوضح الجبرتي أن مركز طوسون كان قد ساء قبيل وصول محمد على بعد أن تلقت قواته هزيمة كبيرة في معركة تربة واستمر ذلك الوضع عقب وصول محمد على إلى الحجاز مما جعله يطلب المدد من القاهرة ، وقد أشار الجبرتي إلى ذلك في حوادث ربيع الثاني عام ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م) بقوله : « وفي ليلة الاثنين سادسه حضر مرسول من ناحية الحجاز رسلا من عند الباشا باستعجال حسن باشا للحضور إلى الحجاز وكان قبل ذلك بأيام أرسل يطلب سبعة آلاف عسكري وسبعة آلاف كيس فشرع كخدا بيك استكتاب أشخاص من أخلاط العالم » (٥٣) .

وكجزء من خطط محمد على الرامية للسيطرة على شبه الجزيرة العربية قام بالقبض على الشريف غالب وأولاده وصادر أملاكه وأرسله إلى القاهرة ومنها إلى استانبول حيث نفى إلى سبالونيك بعد أن ارتاب محمد على في مسلكه (٥٤) .

وعندما شرع محمد على في تنفيذ خطته العسكرية أرسل ابنه طوسون على رأس جيش من المشاة والفرسان لملاقاة جيش الأمير سعود الذي تحصن في بثة ورنية لكن هذه القوات فشلت في الاستيلاء على تربة وانهزمت أمام قوات آل سعود وانسحبت إلى الطائف فتعقبها القوات السعودية وفرضت الحصار عليها لبعض الوقت وقد وصف الجبرتي معركة تربة في حوادث شهر جمادى الأولى ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م) وأوضح أن سوء موقف محمد على يرجع إلى مسلكه مع الشريف غالب وهو الموقف الذي دفع الأشراف بقيادة الشريف راجح إلى الانضمام لمعسكر الموحدين

ومعهم بعض القبائل خوفاً من غدر محمد على ، فالجبرتي يقول : « وفي رابعه وصلت هجانة من ناحية الحجاز بطلب حسين بك والى باشا واخشاب واحتياجات وجمال والذي أخبر به المخبرون عن الباشا وعساكره أن طوسون باشا وعابدين بك ركبوا بعساكرهم على ناحية تربة . . ف وقعت بينهم حروب ثمانية أيام ثم رجعوا منهزمين ولم يظفروا بطائل ولأن العربان نفرت طباعهم من الباشا لما حصل منه في حق الشريف من القبض عليه وهاجر كثير من الأشراف وانضموا إلى الأخصام وتفرقوا في النواحي ومنهم شخص يسمى الشريف راجح فأتى من خلف العسكر وقت قيام الحرب وحاربهم ونهب النخيرة والأحمال وقطع عنهم المدد » (٥٥) .

وانتقل الجبرتي من تصوير أبعاد هزيمة تربة وأسبابها إلى وصف أوضاع الحرمين في ظلم الحرب وذكر أن سبب ارتفاع الأسعار الذي حدث خلال تلك الفترة يرجع إلى سياسة محمد على الاحتكارية التي وصلت إلى حد تفتيش الحجاج الزاهبين للحج ، فالجبرتي يقول : « وأخبروا أن الجمال قل وجودها عند الباشا ويشتريها من العربان المسلمين بأعلى ثمن وأخبروا أيضاً أنه واقع بالحرمين غلاء شديد لقلة الجالب واحتكار الباشا للغلال الواصلة إليه من مصر فيبيعه حتى على عسكره بأعلى ثمن مع التحجير على المسافرين والحجاج في استصحابهم . شيئاً من الحب والدقيق فيفتشون متاعهم في السويس ويأخذون ما يجدونه معهم مما يتزودون به في سفرهم من القمح والدقيق وما يكون معهم من الفرائسة لنفقتهم وأعطوهم بدلها من القروش » (٥٦) .

كما أورد الجبرتي في حوادث نفس الشهر (جمادى الأولى ١٢٢٩ هـ) نبأ وفاة الأمير سعود وتولى الأمير عبد الله بن سعود قيادة الموحدين (٥٧) .

وفى حوادث شهر ربيع الثانى ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م) أورد الجبرتى خبرا استيلاء قوات محمد على على رانية وبيشة وتأهب قواته لاحتلال القنفذة وفى أخبار شهر جمادى الأولى أورد الجبرتى أخبار استيلاء محمد على على القنفذة وأسر طامى بن شعيب (٥٨) وكانت القنفذة قد دارت حولها معارك شرسة بقيادة طامى بن شعيب وقوات محمد على أورد الجبرتى تفاصيلها فى حوادث شهر جمادى الأولى ١٢٢٩ هـ (٥٩) .

ومالبت الجبرتى أن أورد نبأ وصول محمد على المفاجئ الى القاهرة ليلة الجمعة ١٥ رجب ١٢٣٠ هـ (٢٣ يونيو ١٨١٥ م) (٦٠) ، وعندما حاول عبد الله بن سعود ان يبذل جهده للوصول الى اتفاق مع محمد على حققا للدماء أورد الجبرتى نبأ الوفد السعودى الذى وصل الى القاهرة فى شوال ١٢٣٠ هـ (سبتمبر ١٨١٥ م) للتفاوض حول شروط الصلح وانهاء القتال فى شبه الجزيرة وهو الوفد الذى ضم عبد الله بن محمد والقاضى عبد العزيز بن حمد بن ابراهيم ويقول الجبرتى أن محمد على لم يحسن استقبال الوفد ولم يعجبه الصلح المبدئى الذى وقع بين عبد الله بن سعود وطوسون وأورد الجبرتى نص الحوار الذى دار بين الوفد ومحمد على بما يئيد أن عبد الله بن سعود كان راغبا حقا فى الصلح بطريقة يفهم منها اختلاف شخصية عبد الله بن سعود عن شخصية سلفه الأمير سعود .

ويذكر الجبرتى أنه التقى بذلك الوفد مرتين ، ويقول « فوجدت منها أنسا وطلاقة لسان واطلاعا وتضلعا ومعرفة بالأخبار والنوادر ولهما من التواضع وتهذيب الأخلاق وحسن الأدب فى الخطاب والتفقه فى الدين واستحضار الفروع الفقهية واختلاف المذاهب فيها ما يفوق الوصف واسم احدهما عبد الله والآخر عبد العزيز وهو الأكبر حسا ومعنى » (٦١) .

وواصل الجبرتي ذكر جوانب من تطور الحرب في شبه الجزيرة بعد وصول ابراهيم باشا اليها في حوادث شهر رجب ١٢٣٢ هـ (١٨١٦ م) . وفي حوادث شهر ربيع الثاني ١٢٣٣ هـ (١٨١٧ م) أشار الجبرتي الى استيلاء ابراهيم باشا على الشقراء وانسحاب عبد الله بن سعود منها الى الدرعية ليلا (٦٢) .

غير ان الجبرتي في هذه الفترة لا يقدم تفاصيل لسير القتال لقلة الأخبار الواردة أو ربما لأنه لم يكن راضيا عن تطور القتال في هذه المرحلة من الحرب الأمر الذي جعله يغفل تفاصيل المعارك، فمثلا هو لا يذكر في حوادث شهر جمادى الثانية ١٢٣٣ هـ أية تفاصيل عن سير القتال حول الدرعية سوى قوله « ضربت مدافع لوصول بشارة من ابراهيم باشا بأنه ملك جانبا من الدرعية وان الوهابية محصورون وهو ومن معه من العربان محيطون بهم » (٦٣) .

ويقول في أحداث شهر رمضان « وصل نجاب واخبر بأن ابراهيم باشا ركب الى جهة من نواحي الدرعية لأمر يبتغيه فاغتم الوهابية غيابه وكبسوا على العرضى على حين غفلة وقتلوا من العساكر عدة وافرة وأحرقوا الجبخانة » (٦٤) .

وفي اخبار شهر ذى الحجة يذكر الجبرتي خبر سقوط الدرعية في يد قوات ابراهيم فيقول « في سابعه وردت بشائر من شرقى الحجاز بمراسلة من عثمان أغا الورداني بأن ابراهيم باشا استولى على الدرعية والوهابية فانسر الباشا لهذا الخبر سرورا عظيما » (٦٥) . ثم عاد فأكد الخبر مرة أخرى في حوادث شهر محرم ١٢٣٤ هـ موضحا حجم الاحتفالات التي أقامها محمد على بهذه المناسبة في القاهرة ، ويورد الجبرتي في حوادث نفس الشهر خبر وصول عبد الله بن سعود الى القاهرة ومقابلته لمحمد على كما أورد الحديث الذي دار بينهما ، ويقول الجبرتي ان

محمّد عليّ: عندما دخل عليه عبد الله بن سعود « قام له وقابله بالبشاشة وأجلسه بجانبه وحادثه وقال له ما هذه الطاولة ؟ فقال الحرب سجل قال وكيف رأيت إبراهيم باشا ؟ قال ما قصر ويذل همته ونحن كذلك حتى كان ما كان قدره المولى فقال أنا ان شاء الله تعالى أترجى فيك عند مولانا السلطان فقال المقدر يكون ثم البسه خلعة وانصرف » . ثم أورد الجبرتي بعد ذلك خبر سفر عبد الله ابن سعود الى الآستانة (٦٦) .

وفي أخبار شهر رجب ١٢٣٤ هـ سجل الجبرتي نبأ وصول مجموعة أخرى من الموحدين وآل سعود ويقول ان عددهم بلغ نحو اربعمئة شخص من بينهم ابن عبد الله بن سعود « واسكنوا بالمشلة التي بالأزبكية وابن عبد الله بن سعود بدار عند جامع مسكة هو وخواصه من غير حرج عليهم » (٦٧) .

ومما لاشك فيه ان الجبرتي نساءه ان يرى بعض الأسرى من المسلمين يباعون في الأسواق ، فهو يقول في حوادث صفر ١٢٣٥ هـ « وفيه وصل جماعة من عسكر المغاربة والعرب الذين كانوا ببلاد الحجاز وصحبهم أسرى من الوهابية نساء وبنات وغلما نزلوا عند الهمايل وطفقوا يبيعونهم على من يشتريهم » . ويعلق على ذلك بقوله « مع أنهم مسلمون وأحرار » (٦٨) .

وكان آخر ما أورده الجبرتي حول الموضوع هو ضرب آخر محاولة من قبل آل سعود للتجمع في الدرعية بقيادة الأمير مشاري ابن سعود وذلك في حوادث شهر شوال ١٢٣٦ هـ (١٨٢٢ م) (٦٩) .

وخلال عرض الجبرتي لبعض وقائع الحرب في شبه الجزيرة بين الموحدين وقوات محمد عليّ تعرض الجبرتي بشكل سريع لبعض القضايا المتصلة بهذه الحرب منها نوعية القوات التي شاركت

فى حرب شبه الجزيرة ، والمجبرتى يصفّ هذه القوات بما يفيد أنّها كانت بمعدة كل البعد عن الدين والأخلاق رغم أنّهم يطلقون على أنفسهم لقب المجاهدين ، فهو يقول فى حوادث شهر رمضان عام ١٢٢٩ هـ « برز دبوس أوغلى خارج باب الفتوح ليسافر بعسكره الى الحجاز وكذلك حسن اغا سرششمة ونصبوا خيامهم واستمروا يخرجون من المدينة ويدخلون غدوا وعشيا وهم يأكلون ويشربون جهارا نهارا فى رمضان ويقولون نحن مسافرون ومجاهدون ويمرون بالأسواق ويجلسون على المصاطب وبأيديهم الاقصاب والشبكات التى يشربون فيها الدخان من غير احتشام ولا حياء .. واشنع من ذلك انه اجتمع بناحية عرضيهم وخيامهم الجم الكثير من النساء الخواطى والبغايا ونصبوا لهن خياما واخصاصا وأنضم اليهن بيع البوظة والعرقى والحشاشون والغوازى والرقاصون وأمثال ذلك انحشر معهم الكثير من الفساق واهل الأهواء والعياق من اولاد البلد فكانوا جمعا عظيما يأكلون الحشيش ويشربون المسكرات ويزنون ويلوطون ويشربون الجوزة ويلعبون القمار جهارا فى رمضان ولياليه مختلطين مع العساكر كأنما سقط عن الجميع التكاليف وخلصوا من الحساب .. » (٧٠) .

ويؤكد الجبرتى فكرته هذه مرة أخرى وهو يتحدث عن الامدادات التى أرسلت الى شبه الجزيرة العربية خلال شهرى شعبان ورمضان عام ١٣٣ هـ (١٨١٨ م) « وارتحل جملة من العساكر فى دفعات ثلاث برا وبحرا يتلو بعضهم بعضا فى شعبان ورمضان وبرز عرضى خليل باشا الى خارج باب النصر وترددوا فى الخروج والدخول واستباحوا الفطر فى رمضان بحجة السفر فيجلس الكثير منهم . فى الأسواق يأكلون ويشربون ويمرون بالشنوارع وبأيديهم اقصاب الدخان من غير احتشام ولا احترام لشهر الصوم وفى اعتقادهم الخروج بقصد الجهاد » (٧١) .

ولا يستنى الجبرتى القوات التى حاربت ضد الموحدين فى شبه الجزيرة العربية قوات مصرية فهو يسميهم الأتراك ، فهو يقول . فى حوادث شهر رمضان ١٢٢٧ هـ فى ذكر معركة الصفراء « وردت هجانة مبشرون باستيلاء الأتراك على عقبة الصفراء والجديدة من غير حرب » ، ويقول فى حوادث شهر ربيع الثانى ١٢٣٣ هـ (١٨١٨ م) وهو يصف تطور المعارك بين قوات ابراهيم باشا والأمير عبد الله بن سعود « وبين عساكر الأتراك والدرميين مسافة يومين » (٧٢) .

ثم يتناول الجبرتى اثر حرب ثـسبـه الجزيرة على المجتمع المصرى ، والجبرتى يرى ان محمد على قد استغل هذه الحرب لغرض المزيد من الضرائب والأتاوات كما جند لهذه الحرب كل العناصر القادرة على الاسهام فى مجهوده الحربى من الحرفيين والصناع لدرجة أثرت على السوق المصرية ، فهو مثلا يفكر فى حوادث شهر ذى الحجة عام ١٢٢٦ هـ (يناير ١٨١١ م) ان محمد على « فرض على البلاد جمالا ذكر انها من أصل الغرائم والفرض فى المستقبل وكذلك فرض غللا » ويقول الجبرتى أن ما فرض على اقليم الشرقية وحده بلغ اثنى عشر أردبا وذلك فى أعقاب الهزيمة التى لحقت بقواته فى معركة الصفراء « (٧٣) .

وفى أعقاب وصول محمد على الى الحجاز فى أغسطس ١٨١٣ وكنتيجة لسوء موقف قواته طلب سبعة آلاف كيسة من النقود وعددا من الجند والعناصر التى يمكن ان تقوم بالخدمات الضرورية للجيش ويقول الجبرتى « ان كتحدا بىك جمع اخلاطا من العالم . . وفيهم أشخاص من الفعلة الذين يستعملون فى شيل التراب والطين من العمائر ويرابرة وارسل الكتحدا الى الفيوم وغيرها يطلب رجالا من أمثال ذلك وجمعوا الكثير من أرياب

الصنائع مثل الخبازين والفرانين والنجارين والحدادين والبيطرة وغيرهم من أرباب الصنائع ويسحبونهم قهرا فأغلق الفرانون مخابزهم وتعطل خبز الناس أياما « (٧٤) » .

وفى عام ١٢٣٣ هـ زاد محمد على الضرائب وذكر الجبرتي أن سبب ذلك هو الحرب في شبه جزيرة العرب فهو يقول « ومنها أن اليأشيا زاد في هذه السنة الخراج وجعل على كل قدان ستة قروثن وسبعة وثمانية وذكر أنها مساعداة على حرب الحجاز والخوارج « (٧٥) »

وأخر القضايا التي تتعلق بهذا الموضوع والتي أثارها الجبرتي هي أسلوب محمد على في تحقيق أهدافه خلال هذه الحرب وهو أسلوب يقوم على استخدام كل وسائل الخديعة والمكر ليس فقط مع أعدائه ومعارضيه بل مع العناصر التي تعاونت معه أيضا من أمثال الشريف غالب ، ويفهم مما أورد الجبرتي في عدد من المواضع أولها مذبحه القلعة التي نفذها محمد على في الماليك بينما كان يحتفل بتنصيب ابنه طوسون قائدا للقوات المتوجهة الى حرب الموحدين في شبه الجزيرة ، وقد أورد الجبرتي تفاصيل هذه الواقعة في حوادث شهر صفر ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) ويعلق على هذه المذبحة التي غدر فيها محمد على بالماليك دون سابق انذار بقوله « فكانت هذه الكائنة من أشنع الجوادث التي لم يتفق مثلها « (٧٦) » .

ويعرض الجبرتي مرة أخرى لأسلوب محمد على القائم على الخديعة في التعامل مع أعدائه فيما أوردته عن الطريقة التي تم بها أسر طامي بن شعيب فيقول الجبرتي في حوادث شهر جمادى الأولى ١٢٣٠ هـ « ... ووردت مكاتبات بالقبض على طامي الذي

جَريَ مَنَّةٌ ما جرى مَنَّى وقائع مَنفَذة السَّابقة وقتله العساكر فلم يَزَلْ راجح الذي اصطلح مع الباشا ينضب له الخبائل حتى صاده وذلك انه عمل لابن اخيه مبلغا من المال ان هو اوقعه في شركه فعمل له وليمة ودعاه الى محله فأتاه آمنا فقبض عليه واغتاله طمعا في المال وأتوا به الى عريضى الباشا فوجهه الى بندر جدة في الحال وأنزلوه السفينة وحضروا به الى السويس وعجلوا بحضوره» (٧٧) .

ومرة ثالثة يوضح الجبرتي أسلوب محمد على القائم على القدر في الطريقة التي تم بها القبض على ابن الشريف حمود عندما شرعت قوات خليل باشا تتحرك في ديسمبر ١٨١٨ لضم منطقة ابي عريش اليمنية (٧٨) . فالجبرتي يقول في حوادث شهر شعبان ١٢٣٤ هـ (١٨١٩ م) « وصل جماعة هجانة من جهة الحجاز وصحبتهم ابن حمود أمير يمن الحجاز وذلك انه لما مات أبوه تأمر عوضه وظهر الطاعة وغدم المخالفة للدولة فلما توجه خليل باشا الى اليمن اخلى له البلاد واعتزل في حصن له ولم يخرج لدفعه ومجاربته » كما فعل أبوه وتردذت بينهما المراسلات والمخادعات حتى نزل من حصنه وحضر عند خليل باشا فقبض عليه وأرسله مع الهجانة إلى مصر (٧٩) .

ويوضح الجبرتي ان هذا الأسلوب في التعامل لم ينج منه حتى أولئك الذين تعاونوا مع محمد على أمثال الشريف غالب الذي ذكر الجبرتي تفاصيل القبض عليه وذهابه الى القاهرة ثم نفيه بعد ذلك بواسطة السلطان العثماني فالجبرتي يقول في حوادث شهر محرم ١٢٢٩ هـ « وفي يوم الأحد سابع عشره وصل السيد غالب

شريف مكة الى مصر القديمة وقد أتت به السفينة من القلزم إلى مرساة ثغر القصير فتلقيه ابراهيم باشا وحضر صحبته الى قنا وقوص ثم ركب النيل بمن معه من أولاده وعبيده والعسكر الواصلين صحبته وحضر الى مصر القديمة .. « (٨٠) » .

ويستطرد الجبرتي فيقول « والذي بلغنا في كيفية القبض عليه أنه لما ذهب الباشا الى مكة واستمر هو وابنه طوسون باشا مع الشريف غالب على المصادقة والمسالمة والمصافاة وجدد معه العهود والايمان في جوف الكعبة بألا يخون أحد صاحبه وكان الباشا يذهب اليه في قلة وهو الآخر يأتي اليه والى ابنه كذلك واستمروا على ذلك خمسة عشر يوما من ذى القعدة . دعاه طوسون باشا اليه فأتى اليه كعادته في قلة توجد بالدار عساكر كثيرة ، فعندما استقر به المجلس وصل عابدين بك في عدة وافرة وطلع الى المجلس فدنا منه واخذ الجنبية من حزامه وقال له أنت مطلوب للدولة فقال سبعا وطاعة ولكن حتى اقضى اشغالي في ظرف ثلاثة أيام واتوجه فقال لا سبيل الى ذلك والسفينة حاضرة في انتظارك فحصل في جماعة الشريف وعبيده رجة وصعدوا على أبراج سرايته وأرادوا الحرب فأرسل اليهم الباشا يقول لهم ان وقع منكم حرب احرقت البلدة وقتلت استاذكم وأرسل لهم أيضا الشريف يكثفهم عن ذلك وكان بها أولاده الثلاثة فحضر اليهم الشيخ احمد تركي وهو من خواص الشريف وخدمهم وقال لهم لم يكن هناك بأس وانما والدكم مطلوب في مشاورة مع الدولة ويعود بالسلامة وحضرة الباشا يريد أن يقتل كبيركم نيابة عن أبيه الى حين رجوعه ولم يزل حتى انخدع كبيرهم لكلامه وقاموا معه فذهب بهم الى محل خلاف الذي به والدهم « (٨١) » .

ويستطرد الجبرتي فيصور المعاملة التي لقيها الشريف غالب وأسرتة من سلطات محمد علي فيقول الجبرتي « وفيه (شهر)

مهرم) أيضا واصل حريم الشريف غالب فعينوا له دارا يسكنها مع حريمه جهة مسبوقة العربى فسسكنها ومعه اولاده وعليلهم المحافظون واستولى الباشا على موجودات الشريف غالب من نقود وامتعة وودائع ومخبات وشسكر وتجارات وين وبهار بمكة وجدة والهند واليمن شىء لا يعلم قدره الا الله ءأخرجوا حريمه وجواريه من سرايته بما عليهن من الثياب بعد ما فتشوهن تفتيشا فاحشا وهتك حرمة . قل اللهم مالك الملك هذا الشريف غالب انتزع من ملكته وخرج من دولته وسيادته وأمواله ونخائره وانسل من ذلك كله كالشعرة من العجين حتى انه لما ركب وخرج مع العسكر وهم متوجهون به الى جدة أخذوا ما فى جيوبه فليعتبر من يعتبر وكل الذى وقع له وما سبق له بعد من التغريب وغيره فيما جناه من الظلم ومخالفة الشريعة والطمع فى الدنيا وتحصيلها بأى طريق «(٨٢) .

وأخر القضايا فى هذا السياق هى رؤية الجبرتى لمبادئ الدعوة السلفية :

لم يذكر الجبرتى رأيه فى مبادئ الدعوة السلفية فى دراسة أو فى مقدمة نظرية متكاملة وانما جاءت رؤية الجبرتى لمبادئ الدعوة السلفية خلال بعض التعليقات التى أوردها عن موقف الموحدين من البدع السائدة فى عصرهم ، ثم خلال تعليقه على الرسالة التى أوردها فى الجزء الثالث من عجائب الآثار وتحتوى جانباً من مبادئ الدعوة السلفية (٨٣) وهى تركّز على قضية محورية هى قضية التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ، وتستدل على ذلك بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كما تركّز على رفض البدع والمسببحدثات التى أعظمها الأشرك بالله والتوجه الى الموتى وسؤالهم النصر على الأعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات التى لا يقدر عليها الا رب الأرض

والسماوات وكذلك التقرب اليهم بالندور ونبائح القرى
والاستغائة بهم فى كشف الشدائد وجلب الفوائد الى غير ذلك من
انواع العبادة التى لا تصلح الا لله .

وفى النهاية تقول الرسالة « . . وتدعو الناس الى اقامة
الصلوات فى الجماعة على الوجة المشروع وايتاء الزكاة وصيام
شهر رمضان وحج بيت الله الحرام ونأمر بالمعروف ونهى عن المنكر
كما قال تعالى (الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة وآتوا
الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور) فهذا
هو الذى نعتقده وندين به الله فمن عمل بذلك فهو اخونا المسلم له
ما لنا وعليه ما علينا ونعتقد ايضا ان أمة محمد صلى الله عليه وسلم
المتبعين للسنة لا تجتمع على ضلالة وانه لاتزال طائفة من أمته
على الحق منصوره لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى ياتى
امر الله وهم على ذلك . . » (٨٤) .

وعند هذا الحد تنتهى الرسالة ، ويقول الجبرتى تعليقا عليها
« اقول ان كان كذلك فهذا ما ندين الله به نحن ايضا وهو خلاصة
لباب التوحيد وما علينا من المارقين والمتعصبين وقد بسط الكلام
فى ذلك ابن القيم فى كتابه اغائة اللفان وحافظ المقرئ فى تجريد
التوحيد والامام البوسنى فى شرح الكبرى وشرح الحكم لابن عباد
وكتاب جمع الفضائل وقمع الرذائل وكتاب مصايد الشيطان وغير
ذلك » (٨٥) . .

وكان الجبرتى قدم لهذه الرسالة بقوله « ثم رجعوا بالمحمل
ودخلوا به المدينة وقت الظهر على خلاف العادة وحضر صحبة
الحجاج كثير من أهل مكة هروبا من الوهابى ولغظ الناس فى خبر
الوهابى واختلفوا فيه فمنهم من يجعله خارجيا وكافرا وهم المكيون

ومن تابعهم وصدق أقوالهم ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه
وارسل الى شيخ الركب المغربى كتابا معه أوراق تتضمن دعوته
وعقيدته وصورتها « (٨٦) » .

اما تعليقات الجبرتى على موقف الموحدين من البدع
والمستحدثات فقد جاءت حول قضيتين الأولى هى ما تردد حول
منع الموحدين الناس من الحج الى بيت الله الحرام والجبرتى ينفى
ذلك أكثر من مرة ، فهو يقول فى أخبار شهر جمادى الثانية ١٢٢١ هـ
(١٨٠٦ م) « وصلت قافلة من السويس وصحبتهما المحمل فأدخلوه
وشقوا به من المدينة وخلفه طبل وزمر وأمامه أكابر العسكر وأولاد
الباشا وبمصطفى جاويش المتسفر عليه ولقد أخبرنى مصطفى
جاويش المذكور أنه لما ذهب الى مكة وكان الوهابى حضر الى
الحج واجتمع به فقال له الوهابى ما هذه العوידات التى تأتون
بها وتعظمونها بينكم ؟ يشير بذلك القول الى المحمل فقال له جرت
العادة من قديم الزمان بها يجعلونها علامة وإشارة لاجتماع الحاج
فقال لا تفعلوا ذلك ولا تأتوا به بعد هذه المرة وان أتيتم به مرة
أخرى فانى أكسره « (٨٧) » .

ثم يقول الجبرتى فى حوادث شهر المحرم عام ١٢٢٢ هـ
(١٨٠٧ م) « . . . وفيه ورد الخبر بأن ركب الحاج الشامى رجع
من منزلة هدية ولم يحج فى هذا العام وذلك أنه لما وصل الى
المنزلة المذكورة أرسل الوهابى الى عبد الله باشا أمير الحج يقول
له لا تأت الا على الشروط التى شرطناها عليك فى العام الماضى
وهو ان تأتى بدون المحمل وما يصحبهم من الطبل والزمر والاسلحة
وكل ما كان مخالفا للشرع فلما سمعوا ذلك رجعوا من غير حجج » .
ويقول الجبرتى تعليقا على ذلك « ولم يتوكلوا بما كبرهم » (٨٨) .

ثم يقول الجبرتي في أحداث شهر صفر « وفيه وصل ججاج
المغاربة الى مصر من طريق البر وأخبروا أنهم حجوا وقضوا
مناسكهم وان سعود الوهابي وصل الى مكة بجيش كثيف وحج
مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار وأنه هدم القباب
وقبة آدم وقباب ينبع والمدينة وأبطل شرب التبتاك والنارجيلة من
الأسرار وبين الصفا والمروة وكذلك البدع » (٨٩) .

ونرى الشروط التي أوردها الجبرتي للاتفاق الذي تم بين
الشريف غالب وآل سعود والذي قبل بمقتضاه الدخول في طاعة
آل سعود (١٢٢١ هـ) ذكر الجبرتي جانباً من هذا الاتفاق فيقول
« فعاهده (يقصد عاهد الشريف غالب الأمير سعود الكبير) على
ترك ذلك وأتباع ما أمر الله تعالى به في كتابه العزيز من اخلاص
التوحيد لله وحده وأتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام وما
كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابه والتابعون والأئمة المجتهدون
إلى أواخر القرن الثالث وترك ما حدث في الناس من الالتجاء
لفير الله من المخلوقين الأحياء والأموات في الشدائد والمهمات وما
أحدثوه من بناء القباب على القبور والتصاوير والزخارف وتجميل
الاعتاب والخضوع والتذلل والمناداة والطواف والنذور والذبح
والقربان وعمل الأعياد والمواسم لها واجتماع أصناف الخلائق
النساء بالرجال وباقي الأشياء التي فيها شركة المخلوقين مع الخالق
في توحيد الألوهية التي بعثت الرسل الى مقاتلة من خالفها ليكون
الدين لله الله فعاهده على منع ذلك كله وعلى هدم القباب المبنية
على القبور والأضرحة لأنها من الأمور المحدثه التي لم تكن في
عهد النبوة » (٩٠) .

وكان آخر القضايا التي أثارها الجبرتي والتي توضح موقفه
من الفكر السلفي تعليقه المستفيض على موضوع استيلاء آل

يسفود على الأموال الموجودة بالغرفة النبوية الشريفة فيذكر الجبرتي في حوادث شهر ذي الحجة عام ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨ م) أن أهالي مكة والمدينة الذين تضرروا من انقطاع قوافل الحج المصري والشامي لجأ بعضهم إلى استنبول يستعدون الدولة العثمانية « وينكرون أن الوهابي استولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر ونقلها وأخذها فيرون أن أخذه لذلك من الكبائر العظام » وينبئ الجبرتي للتعليق على ذلك موضحاً رأيه في هذه البدعة فيقول « وهذه الأشياء أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء والملوك والولاطين الأعاجم وغيرهم حرصاً على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتي بعدهم أو لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء فلما تقادمت عليها الأزمنة وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة وهي في الزيادة ارتصدت معنى لا حقيقة وارتسم في الأذهان حرمة تناولها وأنها صارت مالا للنبي صلى الله عليه وسلم فلا يجوز لأحد أخذها ولا انفاقتها والنبي عليه الصلاة والسلام منزّه عن ذلك ولم يدخر شيئاً من عرض الدنيا في حياته وقد أعطاه الله الشرف الأعلى وهو الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتاب واختار أن يكون نبياً عبداً لا أن يكون نبياً ملكاً » (٩١) .

ويستطرد الجبرتي فيقول « ومحبة الرسول بتصديقه واتباع شريعته وسننته لا بمخالفة أوامره وكثر المال بحجرتة وحرمان مستحقه من الفقراء والمساكين » ويقول الجبرتي أن وجود هذه الأموال « لا ينتفع بها أحد إلا ما يختلسه العبيد والخصيان الذين يقال لهم أغوات الحرم . والفقراء من أولاد الرسول وأهل العلم المحتاجون وأبناء السبيل يموتون جوعاً وهذه الذخائر محجور عنها ومتنوعون منها » (٩٢) . وهو بذلك لا يستنكر استيلاء آل يسفود على هذه الأموال .

... تلك هي رؤية الجبرتي لحركة الإصلاح السلفية بإجديتها ومبادئها كما جاءت في عجائب الآثار ، وهي رؤية متعاطفة مع هذه الحركة ومبادئها ومتسقة مع موقف الجبرتي الناقد لانحرافات عصره ، وعلى الرغم من أن الجبرتي كان قليل التعليق على الأخبار التي يوردها لدرجة جعلت البعض يصنفه في عداد الأخباريين (٩٣) ، فإنه خرج عن هذه القساعة إلى حد ما في تعليقاته على موقف الموحدين المتصدي للبدع التي شاعت خلال تلك الفترة وكان تعليقه عليها يفيد إعجابه بمواقفهم وتعاطفه معهم، ومن ناحية أخرى أوضح الجبرتي في مقدمة عجائب الآثار رأيه في قضية مهمة في الفكر الإسلامي وهي قضية التشريع ، والجبرتي يرى أن مصدر التشريع في الإسلام هو الكتاب والسنة حيث يقول « فلما وجب على الملك وعلى ولاية الأمور ألا يقطع في باب العدل إلا بالكتاب والسنة لأنه لا يتصرف في ملك الله وعباد الله إلا بشريعة نبيه » (٩٤) . الأمر الذي يجعلنا نقرر أن الجبرتي كان منحازا للفكر السلفي أكثر من انحيازه للفكر الحديث

هوامش الفصل الثالث

- (١) عن اصل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونسبه انظر : أحمد عبد الغفور عطار : محمد بن عبد الوهاب (بيروت ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٣ م) ص ٢٧ ، ٢٨ .
- (٢) أحمد أمين : المرجع السابق ، ص ١٠ ، ١٥ .
- (٣) د . محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ٢٥ .
- (٤) محمد بن عبد الوهاب : مجموعة التوحيد ، رسالة هدية طيبة (المكتبة السلفية بالقاهرة) ص ١٥٦ .
- (٥) أحمد أمين : المرجع السابق ، ص ١٢ ، ١٣ .
- أيضا أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٣٢ .
- (٦) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الاولى ١١٥٨ - ١٢٣٣ هـ / ١٧٤٥ - ١٨١٨ م (القاهرة ١٩٦٩) ص ٣٠ .
- أيضا أحمد أمين : المرجع السابق ، ص ١٢ .
- (٧) محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ٢٩ .
- (٨) أحمد عبد الغفور عطار : المرجع السابق ، ص ٥٥ ، ٥٦ ، أيضا ابن بشر : المرجع السابق ، ص ٢٠ ، ٢١ .
- (٩) إورد ابن بشر نص الحوار الذي دار بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ٢١ .
- (١٠) أحمد عبد الغفور عطار : المرجع السابق ، ص ٧٠ ، ٨٧ .
- (١١) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ١٢٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٣ ، ٢٨٤ .
- (١٢) د . السيد رجب حراز : الحولة العثمانية وشيخه جزيرة العرب (١٨٤٠ - ١٩٠٨) القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٥ - ١٠٧ .

Gibb : Op. Cit., PP. 26, 27, 50. (١٣)

(١٤) أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ج ٢ ، ص ١١٢٠ .

(١٥) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢ .

Gibb : Islamic Society and the West, Vol. I, (١٦)

P. 234

(١٧) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

(١٨) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،

٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ،

٢٩٠ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣١٢ .

ج ٤ ، ص ص ٥ ، ٦ ، ١٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ١٠٣ ،

١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ،

١٨٠ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ — ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٦٧ ،

٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ،

٣٠٥ ، ٣١٩ .

(١٩) حول تطور علاقة آل سعود بالإشراف انظر :

د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ص ١١٤ ، ١١٩ .

(٢٠) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

(٢١) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٢٢) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

(٢٣) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٢٤) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٢٥) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٢٦) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٢٧) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٢٨) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ . ويلاحظ أن استخدام الجبرتي لكلمة

الخارجي في هذا الموضع كان نقلا عن الوالي العثماني الذي أورد الجبرتي نحن

مبارته في الرد على الألفي الزعيم المملوكي .

(٢٩) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .

(٣٠) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٣٠٠ .

(٣١) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ .

(٣٢) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٣١١ .

(٣٣) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

(٣٤) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٥ .

(٣٥) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٦ .

(٣٦) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٣٥ .

(٣٧) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ .

(٣٨) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٥ .

(٣٩) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٦ .

(٤٠) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٤١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٦٠ .

(٤٢) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٤٣) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٨٥ .

(٤٤) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٨٩ .

(٤٥) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١١٨ ، ١١٩ — تشير الوثائق المصرية

الى أن أول تكليف من قبل السلطان العثماني أحمد على بالتدخل في شبه الجزيرة
كان في عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) ولكن محمد على اعتذر بسبب تدهور أوضاع
مصر الاقتصادية في ذلك الوقت .

د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ٢٨٤ .

(٤٦) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٢٧ .

(٤٧) المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

(٤٨) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٣٦ و ١٣٨ .

(٤٩) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٤٦ .

(٥٠) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٥٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٥١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ — يشير الجبرتي في ذلك

الى اعتقال محمد على للشريف غالب عقب وصول الأول للحجاز — عبد الرحمن
الرافعي : عصر محمد على ، القاهرة (١٣٧٠ — ١٩٥١ م) ص ١٤١ .

(٥٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .

(٥٣) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ .

(٥٤) الرافعي : المرجع السابق ، ص ١٤١ .

(٥٥) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٥٦) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ .

(٥٧) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ .

(٥٨) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢١٠ .

(٥٩) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢١١ .

(٦٠) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

(٦١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ . ويقول الأستاذ أحمد على في كتابه

آل سعود ان الجبرتي اجتمع بالشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب

ويبدو ان المؤلف اختلط عليه الأمر لأن الشيخ عبد الرحمن بن حسن وصل الى مصر

بعد سقوط الدرعية عام ١٢٣٤ هـ (١٨١٨ م) بينما الواقعة المشار اليها ضمن

اخبار شهر شوال ١٢٣٠ هـ - انظر أحمد على : آل سعود (مكة المكرمة ١٣٧٦ هـ

(١٩٥٧ م) ص ١٩٩ .

(٦٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ص ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ .

(٦٣) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٨٩ .

(٦٤) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٨٩ .

(٦٥) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ .

(٦٦) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٩٩ .

(٦٧) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ .

(٦٨) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ .

(٦٩) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣١٩ .

(٧٠) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢١٣ .

(٧١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٨٩ .

(٧٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ص ١٤٦ ، ٢٨٨ .

(٧٣) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٢٨ .

(٧٤) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ .

(٧٥) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٩٢ .

(٧٦) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٣١ .

(٧٧) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢١٩ .

(٧٨) عندما بدأت حملات محمد على على الحجاز أراد أن يستغل الخلاف

الناشب بين آل سعود والشريف حمود أمير منطقة أبي عريش فأرسل محمد

على أحد أتباعه وهو يوسف أغا الى الشريف حمود ليعرض عليه التعاون مع قوات

محمد على ضد قوات آل سعود في عسير بقيادة طامي بن شعيب ، وعندما ذهب

محمد على بنفسه الى الحجاز في أغسطس ١٨١٣ وجه قواته في يناير ١٨١٥ نحو اقليم عسير وانتصرت قواته على طامى بن شعيب واستولت على رانية وبيشة وبعد عودة محمد على الى مصر قامت حملة بقيادة خليل باشا لغزو منطقة ابي عريش ونجحت في الاستيلاء عليها :

د . عبد الحميد البطريق : من تاريخ اليمن الحديث (١٥١٧ - ١٨٤٠) القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٥٠ .

(٧٩) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٠٣ .

(٨٠) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٩٩ .

(٨١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ .

(٨٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٨٣) يقول الاستاذ احمد على في كتابه آل سعود ان هذه الرسالة هي من رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب او احد ابنائه :

احمد على : المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٨٤) عجائب الآثار ، ج ٣ ، نص الرسالة ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

ويلاحظ ان الجبرتي اورد نص هذه الرسالة في بداية تناوله لحركة الموحدين .

(٨٥) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٨٦) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٢٥٥ .

(٨٧) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٦ .

(٨٨) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٥٠ .

(٨٩) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٦ .

(٩٠) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٦ .

(٩١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٨٥ .

(٩٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٨٦ .

(٩٣) عبد الرحمن الجبرتي ، بحوث ودراسات ، ص ١٤٣ .

(٩٤) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٩ .

* * *

خاتمة

ان أهمية الجبرتي كمؤرخ تظهر في دقته وموضوعيته في تناوله لقضايا عصره ، فالسمة البارزة في كتاباته هي الدقة ، ودقة الجبرتي تظهر في استقصائه للحوادث وتحفظه في الكتابة ، فهو يقول تعليقا على حوادث عام ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) تأكيدا لهذه الحقيقة « وانقضت السنة بحوادثها التي قصصت بعضها اذ لا يمكن استيفائها للتباعد عن مباشرة الأمور وعدم تحققها على الصحة وتحريف النقلة وزيادتهم ونقصهم في الرواية ، فلا اكتب حادثة حتى اتحقق من صحتها بالتواتر والاشتهار ، وغالبها من الأمور الكلية التي لا تقبل الكثير من التحريف وربما أشرت حادثة حتى أثبتها ويحدث غيرها وأنساها فأكتبها في طيارة حتى أقيدها في محلها ان شاء الله تعالى عند تهذيب هذه الكتابة » (٣) . ثم يقول في موضع آخر « ولم اخترع شيئا من تلقاء نفسي والله مطلع على أمري وحدثي » (٤) . كما تظهر دقة الجبرتي ايضا في الطريقة التي أتبعها في جمع مادة (عجائب الآثار) فهو يقول بعد ان استعرض صعوبات الكتابة وقلة المصادر « وكنت قد ظفرت بتاريخ من تلك الفروع لكنه على نسق في الجملة مطبوع لشخص يقال له أحمد جلبي عبد الغنى مبتدئا فيه من وقت تملك بنى عثمان للديار

-
- (١) كان الجبرتي قد أخرج الجزء الخاص بفترة الحملة الفرنسية تحت عنوان « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين » ثم أجرى عليه بعض التعديلات بطريقة جعلته أكثر موضوعية مع اضافة احداث الفترة من ١٢١٦ - ١٢٢٠ هـ .
(٢) أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ج ٣ ، ص ص ١١٣٠ ، ١١٣١ هـ .
(٣) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٢٤ .
(٤) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٩٣ .

المصرية وينتهي كغيره من ذكرنا الى خمسين ومائة وألف هجرية ثم ان ذلك الكتاب استعاره بعض الاصحاب وزلت به القدم ووقع فى صندوق العدم ومن ذلك الوقت الى وقتنا هذا لم يتقيد أحد بتقييد ولم يسطر فى هذا الشأن شيئاً يفيد فرجعنا الى النقل من أفواه الشيخة المسنين وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين وما انتقش على أحجار ترب المقبورين وذلك من أول القرن الى السبعين وما بعدها الى التسعين أمور شاهدناها ثم نسيناها وتذكرناها ومنها الى وقتنا أمور تعلقناها وقيدناها ووسطرناها «(٥)» .

أما موضوعية الجبرتي فتجلى فى انه كان يكتب للحقيقة وحدها وهى حقيقة يؤكد ما كتبه الجبرتي عن عصر محمد على ، فالجبرتي انتقد الكثير من أعمال محمد على فى الجزء الرابع من (عجائب الآثار) وهو النقد الذى جر عليه الكثير من المتاعب ومنها قتل ابنه الوحيد خليل عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م) (٦) . لكن ذلك لم يمنع الجبرتي من ان يقول كلمة حق يلخص فيها رايه فى حكم محمد على « وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » (٧) .

وقد اشار الجبرتي الى هذه الحقيقة فى مقدمة الجزء الأول من (عجائب الآثار) بقوله « ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفسى أو غرض جسمانى » (٨) .

(٥) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٦ .

(٦) محمود الشرملاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ، ج ١ (القاهرة

١٩٥٥) ص ١٦ .

(٧) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٥٨ .

(٨) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٦ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
مقدمة	٧
الفصل الأول :	
المؤرخ والعصر	٩
الواقع الاقتصاى والاجتماعى	٢٤
اولا : اختلال نظام النقد	٢٩
ثانيا : التهديد المستمر للطرق والأسواق	٣٠
ثالثا : القلق السياسى الذى عاشته المدينة	٣١
رابعا : تدهور تجارة البن	٣١
البناء الطبقي	٣٢
الصفوة	٣٣
الطبقة الوسطى	٣٥
العامة	٤٢
الطبقات الريفية	٤٩

محاولات الاراسمالية الأوروبية

٥١	ربط الدلتا بالسوق العالمى
٥٤	الفلاحون فى نهاية القرن الثامن عشر
٦١	هوامش الفصل الاول

الفصل الثانى :

٦٩	فى نقد ثقافة المجتمع
٧١	الانهك الحضارى الذى أصيبت به المنطقة العربية
٧٣	سيطرة الترك على السلطة فى الدولة الاسلامية
٨٠	مظاهر نقد ثقافة المجتمع
١٠٠	هوامش الفصل الثانى

الفصل الثالث :

١٠٥	الجبرتى والفكر السلقى
١١١	الموحدون فى عجائب الآثار
١١٢	الصراع بين الأشراف وآل سعود
١١٩	الحرب فى شبه الجزيرة العربية وآل سعود
١٤١	هوامش الفصل الثالث
١٤٧	خاتمة

صدر في هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ ،
د . عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٢ - علي ماهر :
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة ،
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية في العصور الوسطى ،
علية عبد السميع الجنزوري ، ١٩٨٧
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ،
لمى المطيعي ، ١٩٨٧
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي ،
د . عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧
- ٨ - رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية ،
د . علي بركات ، ١٩٨٧
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،
د . محمد أنيس ، ١٩٨٧
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الخيرية ،
محمود فوزي ، ١٩٨٧
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية ،
شكري القاضي ، ١٩٨٧
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير ،
د . نبيل راغب ، ١٩٨٨

- ١٣ - اكدوبة الاستعمار المصري للسودان : رؤية تاريخية ،
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ١٤ - مصر في عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة
الطولونية ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامى ،
د. على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة
عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ - ١٩٥٢) ،
د. حلمي أحمد شلبى ، ١٩٨٨
- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى ،
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية ،
د. على السيد محمود ، ١٩٨٨
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨
- ٢٠ - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين
سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ،
د. محمد انيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨
- ٢١ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر ،
جمال بدوى ، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ٢ ، امام التصوف
فى مصر : الشعراى ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨

- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) ،
د. نجوى كامل ، ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى والغرب ،
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د. أحمد
عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د. سعد اسماعيل على ، ١٩٨٩ .
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
تأليف : الفريد ج. بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،
تأليف : الفريد ج. بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٩ - مصر فى عصر الاخشيديين ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
- ٣٠ - الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٠
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى القاضى ، ١٩٨٩
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضاع
الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د. خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة
حتى عام ١٩١٢ ،
د. يونان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

- ٣٥ - أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠
- ٣٦ - المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين ، ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم
مصطفى ، ١٩٩٠
- ٣٧ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
فى ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادية والاجتماعى فى العصر
العثمانى ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقي الجيمعى ، ١٩٩٠
- ٤١ - محمد فريد : الموقف والأساسة ، رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
- ٤٣ - رحلة فى عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١
- ٤٥ - الحروب الصليبية ، ج ١ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم : د. حسن
حبشى ، ١٩٩١

- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ - ١٩٥٧) ،
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصرى الحديث ،
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
- ٤٨ - الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى ،
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ - ١٩٧٩) ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
د. سهر اسكندر ، ١٩٩٣
- ٥١ - تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية ،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، فى إبريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٢ - مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن
الثامن عشر ،
د. الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،
د. محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢
- ٥٤ - الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ،
د. محمد عفيفى ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج ٢ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د. حسن
حبشى ، ١٩٩٢
- ٥٦ - المجتمع الريفى فى عصر محمد على : دراسة عن اقلية
النوفية ،
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٢

- ٥٧ - مصر الاسلامية واهل النمة ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢
- ٥٨ - أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة ،
د. ابراهيم عبد الله المسلمى ، ١٩٩٣
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية فى مصر ، من التمهيد الى التاميم
(١٩٥٧ - ١٩٦١) ،
د. عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٣
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٣ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،
تأليف : د. سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ،
وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د. عبد العظيم
رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٤ - مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء : دراسة
وثائقية ،
د. محمد نعمان جلال : ١٩٩٣
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧) ،
د. سهام نصار ، ١٩٩٣
- ٦٦ - المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

- ٦٧ - مساعى السلام العربية الاسرائيلية : الأصول التاريخية ،
(ابحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر :
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٨ - الحروب الصليبية ، ج ٣ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د . حسن
حبشى ، ١٩٩٣
- ٦٩ - نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١) ،
د . محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤
- ٧٠ - اهل النمة فى الاسلام ،
تأليف : أ.س . ترتون ، ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى ،
ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد
غمر ، ١٩٩٤
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى
العصر الفاطمى (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ،
امينة أحمد امام ، ١٩٩٤
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د . رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، فى العصر الفرعونى ،
د . سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤
- ٧٥ - اهل النمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الأول ،
د . سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥

- ٧٦ - دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الاحتلال
البريطانى) ،
د . سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥
- ٧٧ - الحروب الصليبية ، ج ٤ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د . حسن
حبشى ، ١٩٩٤
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ - ١٨٩٩)
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥
- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دى يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمى
الجمال ، ١٩٩٥
- ٨٠ - قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوروبى
(١٨٨٢ - ١٩٠٤) ،
د . السيد حسين جلال ، ١٩٩٥
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى
نصر أكتوبر ،
د . رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥
- ٨٢ - مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة
الطولونية ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٣ - مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٤ - مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥
- ٨٥ - تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢) ،
د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٥

- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في مصر الحرة الاقتصادية
(١٨٤٠ - ١٩١٤) ،
د . أحمد الشربيني ، ١٩٩٥
- ٨٧ - مذكرات اللورد كليرن ، ج ١ ، (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
إعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د . عبد الرؤوف
أحمد عمرو ، ١٩٩٥
- ٨٨ - التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥
- ٨٩ - تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني ،
د . عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥
- ٩٠ - معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية ،
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : ييتز مانسفيلد : ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٦
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)
ج ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦
- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٢٤ - ١٩٥٨) ،
د . نبيه بيومي عبد الله ، ١٩٩٦
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤)
ج ٢ ،
د . سهر اسكندر ، ١٩٩٦
- ٩٥ - مصر وأفريقيا .. الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات
الأفريقية بجامعة القاهرة)
أعدّها للنشر د . عبد العظيم رمضان

- ٩٦ - عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من
القرن التاسع عشر ،
د. إيمان محمد عبد المنعم عامر
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د. محمد سيد محمد
- ٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليوناني -
الروماني) ج ٢ ،
د. سمير يحيى الجمال
- ١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،
تأليف : د. د. عبد العزيز صالح ، د. جمال مختار ،
أ. د. محمد إبراهيم بكر ، أ. د. إبراهيم نصحي ،
أ. د. فاروق القاضي ، أعدها للنشر : أ. د. عبد العظيم
رمضان
- ١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،
تأليف : اللواء/ مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء/
عبد الحميد كفاي ، اللواء/ سعد عبد الحفيظ ، السفير/
جمال منصور
- ١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطاني في مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢
د. تيسير أبو عرجة

رقم الايداع ١٩٩٧/٣٤٢٥

الترقيم الدولي 4 — 5125 — 01 — 977 I.S.B.N.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

فرع الصحافة

٩٢
يتضمن هذا الكتاب ثلاثة فصول: الفصل الأول عن
المؤرخ والعصر، ويتحدث عن الواقع السياسى والاجتماعى فى
عصر الجبرتى. والفصل الثانى عن ثقافة المجتمع المصرى فى
عصر الجبرتى، ويفند فيه الدكتور على بركات رأى القائل
بمسئولية العصر العثمانى وحده عن التدهور الذى أصاب
الحياة الفكرية والدينية، ويحدد الأسباب الحقيقية برؤية شاملة..
أما الفصل الثالث فهو عن الجبرتى والفكر السلفى، ويتضمن
رؤية الدكتور على بركات لموقف الجبرتى من الفكر السلفى،
التي انتهى منها إلى أن الجبرتى كان سلفيا فى فكره.